الدكتور محمد مصطفى الزحيلي

الاعتدال في التدين

فكراً وسلوكاً ومنهجاً

الاعتدال في التدين

فكرًا وسلوكًا ومنهجًا

الطبعة الثالثة

1428 ميلادية

الناشر

كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، المبعوث رحمة للعالمين، والذي تمثل به، وبسيرته، وبسنّته، الدّينُ الحقُّ المبين.

وبعد: فإن التديّن مأخوذ من الدّين، ومن معانيه اللغوية: الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملة والعادة والتقليد، منْ دَان به، أو دان بالشيء أي اتخذه ديناً ومذهباً، أي اعتقده، أو اعتاده، ودان بالاسلام ديناً أي تعبّد به وتَدَيَّن، فالتدين هو الطريقة أو المذهب الذي يسير عليه المرء نظرياً وعملياً، وهو المنهج الذي يتبعه في حياته، وفي علاقته مع غيره، وفي عبادته لربه، وفي خضوعه لله تعالى.

والإسلام هو دين الله تعالى الذي يدعو إلى الاعتدال في جميع جوانب الحياة، أي الاعتدال في التدين .

المؤلف

عقيدة وشريعة، عبادة ونظاماً، سلوكاً وأخلاقاً.

وجاءت النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة الشريفة تؤكد هذا المعنى العام في طلب الاعتدال في التدين، وهو مايرادف التوسط في الأمور، أو الوسطية في الحياة والسلوك، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ .

{سورة البقرة 143}

وتأكد هذا المعنى في أحكام فرعية كثيرة، وجزئيات شرعية متعددة، وفي أصول الشرع والدين، وفي قواعده وفروعه، فأمر الله تعالى بالاعتدال في الإنفاق مثلاً، وعدم الإسراف في المال أو التبذير فيه، كما أمر بعدم البخل والشحّ والتقتير، وأثنى على عباد الرحمن المؤمنين الفائزين برضوان الله تعالى وجناته بأنهم:

﴿ ...إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوَاماً ﴾ .

{الفرقان 67}

وأرشد القرآن الكريم إلى تحقيق التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، فقال عز وجل:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

(القصص 77)

وأباح الله للإنسان طيبات الدنيا من الطعام والشراب ، وطلب منه الانتفاع بها، ولكن دون إسراف وتجاوز.... إلى غير ذلك من الامثلة .

ولكن بعض الناس يغلب عليهم فكرياً ونفسياً وسلوكياً – جانب فيميلون اليه ، ويغفلون عن بقية الجوانب، ويظنون -أحياناً- أنهم يحسنون صنعاً فيقعون في الافراط او التفريط ، ويتجهون الى المغالاة والتعصب المذموم او الى التقصير والضياع والتسامح المرفوض ، ليكون ذلك تطرفاً وشذوذاً لايقبله دين الله وشرعه ، مهما كانت البواعث داخلية ام خارجية ، ومن ابليس وجنده أم من أعداء الله وأعوانهم، وقد نبّه الدين الحنيف الى كل ذلك سلفاً وحذّر من مختلف العوامل السلبية، ورسم لأبنائه وأتباعه المنهج القويم، المتمثل في الاعتدال والاقتصاد.

لذلك أردت بحث هذا الموضوع، ومعالجة المؤثرات الايجابية والسلبية فيه، لبيان منهج الإسلام في الحياة والكون والإنسان، وأنه دين الاعتدال والوسطية في كل شيء ، وعرضته في ستة مباحث، وهي:

<u>المبحث الأول:</u> المغالاة في التدين.

<u>المبحث الثاني:</u> نتائج المغالاة في الدين.

<u>المبحث الثالث:</u> التفريط في أحكام الدّين.

<u>المبحث الرابع:</u> نتائج التفريط وأخطاره.

<u>المبحث الخامس:</u> الانتماء والالتزام.

<u>المبحث السادس:</u> الاقتصاد في التدين.

<u>والخاتمة:</u> عن أهم نتائج البحث وخلاصته.

ونسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما يعلمنا ، وأن يفقهنا في ديننا ، وأن يرزقنا التوفيق والرشد والسداد ، وأن يأخذ بيدنا إلى مافيه الخير والرضا والتزام جادة الصواب، وهو نعم المولى والنصير والمسؤول.

الدكتور محمد الزحيلي

المبحث الأول

المغالاة في التديـن

إن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب والشرائع، لتكون سراجاً للناس في حياتهم، وضياء في أعمالهم، وصراطاً مستقيماً في معاملاتهم، وإيماناً صحيحاً خالصاً في عقيدتهم، فتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتهديهم للتي هي أقوم، وتدعوهم لما يُحييهم في الدُّنيا والآخرة، بما يتفق مع الفطرة السليمة في النفس الإنْسَانيِة.

ولكن طريق الإيمان والإسلام، ومنهج الأنبياء والشرائع، تَحُفُّه الغِواية، وتعترضه العقبات، وتقف دونه الحوائل، ويبرز في منعطفاته، أو يختفي في زواياه الشيطانُ، ليدعو أتباعه للضلال، ويفتنهم بمختلف أنواع الفتن، ويستغل فيهم الثغرات وجوانب الضعف البشري، ويفتح أمامهم أصناف الُمغْريات، ويُزيِّن لهم أفكار السوء، ويَلْبِّسَ عليهم فطرتهم، ويَحْجُب عنهم رؤية المستقبل، قال الله تعالى عن الشيطان:

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ .

{النساء 120}

ومن الأفكار الملفقة، والوسائل الخبيثة التي يستغلها الشيطان: المغالاة في الدّين، والتقصير في الأحكام، ويلقي بهذه الشباك أمام المتدين ليصطاده، ويقع فريسة لغوايته، ونبدأ بالمظهر الاول وهو المغالاة.

تعريف المغالاة:

المغالاة أو الغلو : هو الزيادة والمبالغة، والمغالاة في التدين هو التشدّد والتصلّب في مجاوزة الحد المطلوب والمقدر شرعاً، ذلك أن الله تعالى أنزل الأديان والشرائع، وحدّد فيها الوسائل والغايات، وتعبّد الناس بالوسائل كما تعبّدهم بالغايات، وبيّن لهم طريق العبادة ، وكيفية الأداء ، ومنهج السلوك في التعامل والتشريع، ونصت الشريعة أن أفضل وسيلة لعبادة الله تعالى هي الكيفية التي أمر الله تعالى بها، وشرَعها لعباده، لتحقيق مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولجلب النفع لهم، ودَرْء المفاسد

عنهم، ولتأمين صلاح الفرد والجماعة، وتهذيب النفوس والقلوب، وتقويم الأخلاق والسلوك، فلايصح - أصلاً - أن يُعبد الله تعالى إلا بما يُحبُّ ويرضى، وبما شرع للناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الحديث القُدْسي عن ربِّ العالمين :

«منْ عادى لي ولياً فقد آذنْتُه بالحرب، وماتقرَّب إليَّ عَبْدي بشيء أحبُّ مما افترضته عليه»[1] .

فالخروج عن هذه الكيفية انحراف عن الدين، سواء كان عن طريق الزيادة أو النقص، والمغالاة في التدين حياد عن جادة الصواب، ومجاوزة للحد الذي قدَّره الشارع الحكيم.

بواعث المغالاة في التدين :

إن بواعث الغلو في التدين متعددة، وتتصل بخفايا النفوس، ونذكر منها:

---

(1) هذا طرف من حديث صحيح رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

1 - الطمع:

إن الطمع غريزة وفطرة في الإنسان، وإن الاستعجال في الحصول على الرغبات والمكاسب من صفات البشر، قال الله تعالى:

﴿ ... وكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ .

{الإسراء 11}

وقال تعالى :

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... ﴾ ،

{الأنبياء 37}

وكثيراً مايطمع الإنسان بسرعة للوصول إلى أهدافه الكبرى وغاياته السامية، ومنها الفوز برضوان الله في الدنيا والآخرة، ولكنه يحاول أن يقتصر الطريق السَّوِي لهذا الهدف، ويسرع السَّيْر فيه، فيلجأ إلى الزيادة في أنوا ع الطاعة والعبادة، ويتسرب إليه الاعتقاد الخاطئ بأن المنهج الأصلي لايكفي، ولا يحقق هدفه ، وأنه يَقْصر به عن اللحاق بركب الإيمان والصلاح والتقوى ، كما أنه يريد أن يسابق غيره، فيُضيفُ من تلقاء

نفسه، ومن هواه وعقله، وسائل جديدة في العبادة لتقرّبه من الغاية، ويتشدد في الأحكام، فيحرم نفسه من بعض المباحات، ويأخذها بالشدّة والحزم في الطاعة، ويفرض عليها المزيد من التكاليف، ويحملها بعض الأعباء، ويزداد الأمر سوءاً بأن يصدُق هواه، ويغترَ بما وصل إليه، وأن طريقه هو المنهج القويم، والسبيل السدّيد، والوسيلة الوحيدة والحكيمة لتحصيل ما عند الله تعالى، وأن غيره مقصر، أو دونه في العمل، ويتابع طريق الغواية والغلو بخطوة خطيرة، فيبدأ بالدعوة إلى فكرته، والاقتناع بمنهجه وطريقته، وقد يصدّقه بعضُ الناس، ويسيرون وراءه، ليكوّنوا جماعة متطرفة، وفرقة منشقة، ونحلة جديدة مغالية، ولا يدري هؤلاء أنهم تائهون في صحراء، وضائعون في تيهٍ، وضالون في ظلام، وكلّما تقدموا خطوة إلى الأمام ابتعدوا عن جادة الحق والصواب، وانحرفوا عن مبدأ الرّشاد ، وضلوا شاطىء الأمان، والعياذ بالله، ومَثَلُهم كحاطب لَيْل، يحمل أفعى تلسعه وتنهشه، وهو لايدري، وأن عملهم بالذات طعن بالدّين، وسهم موجه الى الشرع الحكيم بأنه لم يهتد الى طريقتهم التي تصوّروها، وزينها لهم - في الحقيقة - الشيطان والجهل والهوى، كما سنرى.

2 - الذنوب والآثام :

وقد يكون الباعث على المغالاة في التديُّن، والتشدد في الأحكام : الشعور الذاتي بالتقصير، والندم على التفريط في الدين في سالف العهد، والخوف من عواقب الذنوب والأعمال السيئة التي اقترفوها فيما مضى من عمرهم، وما جنته أيديهم من الآثام.

ويكبر في أنفسهم الشعور بالذنب أولاً والندم على أعمالهم ثانياً، ومحاولة الهرب منها والتخلص من جريرتها ثالثاً، والتوبة إلى ربّهم رابعاً، فيؤوب أحدهم إلى رشده، ويَلِجُ إلى حظيرة الشرع الإلهي، ويقصد رحمة الله تعالى، ويطمع في العفو والمغفرة، وهنا يحاول أن يغتسل من ذنوبه وآثامه بأسرع وقت ممكن، ويخطئ الطريق السوي، فيسعى للزيادة في الدين، والتشدد في الأحكام، والتعنت في العبادة، ومجاوزة الحدّ المرسوم في التكليف، ويتجه إلى معاقبة نفسه الأمّارة بالسوء، فيحرِمَها من بعض ملذاتها المباحة، ويسدُّ الطريق أمام ميوله وعواطفه بما هو مسموح به شرعاً، ويكبت غرائزه، ويحرّم الطيبات التي أحلها الله، ويرسم لنفسه سبيلاً شططاً، ليسير في طريق الانحراف - من جديد - وهو لا يدري مداه.

وقد حذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البواعث الخفية، والدوافع الخبيثة التي تجثم في مكامن النفس، وتُزَيِّن لصاحبها الحسن والقبح، فقال عليه الصلاة والسلام:

«لايُؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواهُ تَبَعاً لما جئتُ بـه»[1].

وبيَّن الرسول الكريم الدواء الشافي للوقاية من هذه الأمراض سلفاً، والتخلص منها، والتنكب عن سبيلها لاحقاً، فقال صلى الله عليه وسلم:

«إنَّ مِمَّا أخْشَى عليكم شهواتِ الغَيِّ في بُطُونكم وفرُوجكم ومُضلأت الهوى»[2]

وقال أيضاً:

«بئس العبدُ عبدٌ هوىً يُضِلُّه»[3].

---

(1) رواه المقدسي وأبو نُعَيم في الاربعين، والطبراني وأبو بكر الأصبهاني، وقال العلامة ابن رجب: «حديث حسن صحيح».

(2) رواه الإمام أحمد عن أبي بَرْزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه.

(3) رواه الترمذي في باب القيامة من كتابه «الجامع الصحيح».

و قـــال :

«فإنَّ مَنْ يَعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المَهْديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم والمَحْدَثات، فإنَّ كلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعــة».

وفي رواية ثانية :

«وإياكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بِدْعــةٍ ضَلالة»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«أما إني أصومُ وأُفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوَّج النِّساء، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني»[2].

وسيأتي مزيد تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى.

---

(1) رواه الدارمي وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عن العِرْباض بن سارية رضي الله عنه

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

3 - والباعث الثالث للمغالاة في التدين باعث خارجي:

فكثيراً ما يسعى أعداء الله لمحاربة دين الله، وتشويه معالمه، وطمس محاسنه، وتفريق صفوفه عن طريق التوجيه نحو التطرف والتشدد والمغالاة في العقيدة والأحكام، لمعرفتهم أن طريق الغلو مسدود، وأنه يقطع صاحبه في منتصف الطريق، ويؤخره عن اللحاق بركب الإيمان من جهة، ويزرع الفرقة، ويُقسم الأمة، ويُضعف الناس من جهة أخرى.

ويحقق أعداء الله هذا الهدف بطريق عملي بابتداع الوسائل الدخيلة على الدين باسم الدين والطاعة والعبادة، لاصطياد أصحاب النزعة الدينية، وخاصة الشباب ومن عنده حماس ديني، ويرسمون لهم مناهج جديدة، فيها التزمت والإرهاق والمبالغة، ويضيفونها على مناهج العبادة الصحيحة والصراط القويم، وهذا ما يعرف - شرعاً - بالبدعة والابتداع، وكثيراً ما ينشغل الناس ببدعتهم، ويتساهلون بالأحكام الأصلية الصحيحة، أو ينسونها، أو يغفلون عنها، ويهتمون بالدعوة إلى البدعة وتطبيقها والالتزام بها، لتصبح عَلَماً عليهم، وفي ذات

الوقت ينابذون أصحاب الدعوة الحق، ويتشككون فيهم، ويحملون عليهم، وتبدأ الملاسنة والتهم، ويكيلون لهم الشتائم، وينظرون اليهم بعين الحقد، وبذلك يحقق أعداء الله من هذا الطريق أهدافهم، ويصيدون عصفورين بحجر واحد، لتفريق جماعة المسلمين، وغرس العداوة والانشقاق بينهم، واصطياد الشباب والمتحمسين بالمصير المحتوم الذي سيواجهونه في المستقبل القريب.

وهذا ما حذّر منه السلف الصالح، وكشفوه للناس، فقد روى الدارميُّ عن الأوزاعي عن حسّان قال :

«ما ابتدع قوم بدعةً في دينهم إلا نزع اللَّهُ من سُنَّتهم مثلَها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة»[1].

ويؤكد هذا المعنى بشكل جازم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

«مَنْ أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2].

---

(1) سنن الدارمي 54/1.

(2) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

وسوف نذكر مزيداً من الأدلة الشرعية الصحيحة في ذلك في المبحث التالي.

كما يحقق أعداء الله هدفهم بطريق فكري، وهو ما نلاحظه في منهج المستشرقين الذين يوزعون العمل فيما بينهم، ويقتسمون الأدوار التخريبية، فيثير بعضهم فكرة إسلامية مع المغالاة فيها، والتشدد في تنفيذها، والغلو في صورها، والتعنت في تبنّيها، والتشويه في معالمها، والقسوة في تطبيقها، لإعطاء الصورة المزْرية والمشوَّهَة عنها، والإيحاء بعدم صلاح الشريعة للحياة والتطبيق، ثم يقوم فريق آخر من نفس المستشرقين وأتباعهم لنشر الصفحة المقابلة للتطرف والتفريط، وكأنهم يردُّون على أصحاب الاتجاه الأول، ويتبَنَّوْنَ التساهل والتيسير المفرط، وينادون أن العبرة للمضمون مثلا، وليس للشكل، وينشغل كثير من السُذَّج وبسطاء المسلمين بين هذين التيارين، ويغفلون عن حقيقة الدين وجوهره في الموضوع، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها طرح موضوع الجهاد في الإسلام، فيرى بعضهم أنه سبَّة في تاريخ المسلمين، وأنه كان لنشر الدين بالسيف، ويدمجون انتشار الإسلام والدعوة الإسلامية في أنحاء العالم القديم بفكرة

المعارك الحربية التي انتصر فيها المسلمون، ويرى آخرون أنه: لمجرد الدفاع عن النفس، ليفقدوا الجهاد مضمونه الحقيقي في القضاء على الطواغيت والطغيان، واستبداد الحكام في استعباد الشعوب، ونشر الظلم، ثم قيام الدعاة والعلماء بتبليغ الدعوة الإسلامية، ونشر دين الله عقيدة وشريعة، فكراً وأخلاقاً، منهاجاً ونظام حياة بالاقناع والطواعية والاختيار، وتقديم النموذج الحي، والتطبيق المثالي لشرع الله تعالى، وتحقيق مصالح البشرية فرداً وجماعة في الدنيا والآخرة.

ومنها موضوع العبادات، فيرى بعض المستشرقين أنها قاسية وشديدة، وتدفع صاحبها الى الهستريا، أوالبلاهة، أوفقدان الوعي والاتزان، ويقترحون نماذج مضلّلة للعبادة، بينما يقول آخرون: إن الإيمان في القلب، ولا أهمية للصورة والشكل والحركات وأداء العبادات.

ومنها - في مجال الأحكام والتشريع - الإثبات بالشهادة فيتشدد بها بعض المستشرقين وأتباعهم حتى يجعلوها مستحيلة التطبيق، ويتساهل فريق بها في الحياة وأمام القضاء، لتفقد قيمتها، ويقل جدواها، وتصبح ألعُوبةً ومهزلة وسخرية في التنفيذ.

4 - المغالاة في الدين من عمل الشيطان:

ونلاحظ مما سبق أن المغالاة في الدين، سواء كان مرضاً نفسياً داخلياً، أم كان سلاحاً خارجياً من أعداء الله، فإن الشيطان يستغله ويغذّيه وينميه، ويحث أتباعه على السير فيه، ويزخرف لهم أعمالهم ويغري ضعاف الإيمان فيه، ويرتاد الشيطان مكامن النفس الخفية، ويحاول أن يفسد من الداخل، كما يجنّد أتباعه للدعاية والغواية والتضليل من الخارج، ويسلك طريق الغلو إلى نفوس البعض، ويستخدم الوسائل الخبيثة بالتدليس والتلبيس، ويستغل فيهم الميول والعواطف والغرائز ونقاط الضعف، ليدفعهم إلى المغالاة ومجاوزة الحد.

لذلك حذّر القرآن الكريم من اتباع الشيطان، وكشف للناس أنه عدو مبين، ولايدعو إلا إلى السوء والفحشاء، فقال تعالى:

﴿...وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

[البقرة 168]

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ... ﴾ .

(النور 21)

ونبّه الرسول الكريم من وساوس الشيطان وأوهامه، ورسم للأمة المنهج القويم، والصراط المستقيم في العقيدة والعبادة والسلوك، وأدرك السلف الصالح هذه المعاني، وكشفوا لنا أن الغلو في الدّين من أسلحة الشيطان الفتاكة، ومن مخططات أعوانه المدبّرة، فروى العسكري عن فقيه الشام الإمام الأوزاعي أنه قال:

«ما مِنْ أمرٍ أمر اللّهُ به إلا عارضه الشيطان فيه بخَصْلتين، لايُبالي أيّهما أصاب: الغُلو والتقصير»[1] .

---

(1) كشف الخفا 1 / 466 طبع مكتبة التراث الاسلامي بحلب – سورية

ومصداق ذلك ماكشفه القرآن الكريم عن مكيدة الشيطان لآدم وذريته عندما قال الله تعالى عنه :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً * لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾.

(النساء 117 - 120)

النهي عن الرهبنة والرهبانية:

ومن أشد صور المغالاة في التّدين، والغلو في الدّين:

الرهبنة والرهبانية التي شاعت وانتشرت في التاريخ القديم، والتصقت بالمتدينيين والدّين، حتى توهم كثيرون أنها من أصل الأديان السماوية، لذلك حذّر الشرع الحنيف، والرسالة السماوية الخاتمة منها، وأنه لارهبانية في الإسلام، وفنّد حججها، وبيّن أخطارها، ولذلك نفردها بعنوان مستقل.

الرهبانية في الأصل:

اصطلاح في الديانة النصرانية، ولم تكن في زمن السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، إنما ظهرت في أوائل القرون الوسطى، ومرت الرهبانية بعدة مراحل، وتطورت من مرحلة إلى أخرى حتى أصبحت إحدى دعائم النصرانية، ومن أهم الأفكار الرئيسة للعبادة والطاعة، والتقرب لله والتدين له، وقام الرهبان – عبر التاريخ – بأعمال ومهمات في شؤون الحياة، وكوّنوا صورة مخالفة تماماً للصورة والهدف الذي ظهرت الرهبانية من أجلها، وتولّى كبار الرهبان ورؤساؤهم توجيه السياسة للحكومات في العصور الوسطى، وشاركوا الحكومات في السلطة والنفوذ.

ومن هنا صار للرهبانية شقان وصورتان:

الفكرة والتطبيق

– أما الفكرة فتعتمد على الانقطاع للعبادة والطاعة، والانعزال عن الناس والحياة، والزهد في الدنيا والمال، والتخلي عن الطيبات والملذات، وحرمان النفس من الشهوات والغرائز، وأهمها الغريزة الجنسية، فحرّموا الزواج على الرهبان، ليتفرغوا

إلى العبادة، وأداء الصلوات بصورة جماعية، مع الانصراف إلى الصوامع، ولذلك أقيمت الأدْيرة، واجتمع فيها الرهبان، وترهب الراهب انقطع للعبادة، والرهبانية من ذلك[1].

- أما التطبيق فقد سار عكس الفكرة تماماً، وذلك أن كبار الرهبان ورؤساءهم بحسب التسلسل في الكهنوت لم يستمروا على الانعزال والانقطاع عن الحياة، ولم يقفوا مكتوفي الأيدي في أمور السياسة والسلطة، واستغلوا ولاء الناس للكنيسة، وقوة العاطفة الدينية، فكوّنوا سلطة عليا تُهَيمْنُ على الملوك، ووقفوا وراء الكواليس لتوجيه السياسات في أوروبا وغيرها، وعمقوا الارتباط بالحكومات في عصر الإقطاع، وفرضوا جباية الأموال ، ودفع الضرائب من وإلى الملوك والشعوب، وكانت عطايا الملوك السخيّة، وتأمين الحصول على الأتَوات عُرْبوناً لاستمرارهم في المنصب، وهكذا كوّن الرهبان سلطة خاصة، وأنشأوا جماعة معينة، عُرفت في التاريخ القديم والحديث باسم «رجال الدين» و «سلطة الكنيسة». وعاش الرهبان في الصوامع والكنائس والأديرة على الأموال الكثيرة،

---

(1) المصباح المنير، للفيومي، مادة رَهَب.

وحققوا لأنفسهم عيشة مترفة، ووصل كثير منهم إلى حياة الغنى والرفاه، والترف والبذخ على أنفسهم وذوي قرباهم، وعادوا إلى التمتع بجميع أنواع الطيبات واللذائذ .

ولما جاء الإسلام، وأشرق نوره في أرجاء المعموره، اتخذ موقفاً واضحاً ومحدداً من الرهبانية بشقيها، واعتبر الرهبانية ابتداعاً في الدين، فقال تعالى :

﴿ ... وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

{الحديد 27}

فقد بيّنت الآية الكريمة أن الرهبانية - كمبالغة في العبادة، وانتقطاع عن النّاس، وتفضيل للعزلة والتبتل - هي من ابتداع أتباع السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، وأنهم ابتدعوها ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولذلك مدحهم القرآن عليها

ابتداءً، دون أن يكتبها الله تعالى عليهم، وكان من الواجب والمفروض أن يحافظوا عليها لتحقيق هدف العبادة والتطهر والتجرد والإخلاص لله تعالى، وتهذيب النفس، وتطهير الروح، وقد ألزموا أنفسهم بها، وكانت النتيجة أن انقلبت الرهبنة إلى طقوس وشعائر ومظاهر خارجية، بل استغلها أكثرهم لتحقيق المآرب والنزوات، وتولي السلطة وجمع الأموال، والتعصب الديني، والاضطهاد الفكري، «فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» فذمَّهم القرآن على ترك شرطها، ولم يحافظ على جوهرها وحقيقتها إلا القليلُ منهم[1].

أما موقف الإسلام من الرهبانية كفكرة وسلوك بالانقطاع للطاعة والعبادة، فقد نهى عنها، وشدَّد النكير عليها، وحرّم الانقطاع عن الحياة الدُّنيا، ومنع التفرغ لطاعة الله تعالى،

---

(1) انظر في معنى الرهبنة وتطورها، وأثرها، وأقوال بعض النَّصارى فيها، في «تاريخ الأديان» للدكتور يوسف العش والدكتور محمد الزحيلي ص 142 طبع جامعة دمشق، المصباح المنير للفيومي 1 / 329، مادة رهب، محاسن التأويل للقاسمي 5698/16، العبادة، للقرضاوي ص 176،169، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي ص 158.

مع العزوف عن الطيبات والمباحات ومتاع الحياة، ومنع التبتل والامتناع عن الزواج، وبيّن القرآن الكريم منهج الإسلام الكامل في الطاعات والعبادة، والتصور الدقيق عن الكون والحياة والإنسان، ثم طبّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل واضح وصريح بسنته القولية وأفعاله السلوكية، وسيرته الذاتية والاجتماعية على مختلف المستويات والأصعدة.

قال الله تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

(القصص 77)

وقال عز وجل في وصف المؤمنين المتقين:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

(البقرة 201 - 202)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لَيْسَ بِخَيْرِكم مَنْ تَرك دنياهُ لآخرته، ولا آخرتَه لدُنياه، حتى يُصيبَ منهماً جميعاً، فإنَّ الدُّنْيا بَلاغٌ إلى الآخرة، ولاتكونوا كَلاً على النّاسِ»[1].

وجاء في الأثر عن عليّ رضي الله عنه:

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

واعتبر الاسلام كلَ عمل قُصِد به وجهُ الله عبادة، وبهذا المعنى يكون الإنسان في عبادة دائمة متى نوى بأعماله وتصرفاته ابتغاء مرضاة الله، وامتثال أوامره، فالموظف والعامل والمزارع والتاجر والطبيب والمهندس والطالب والمدرس والمربي والداعية، وغيرهم من أصحاب المهن والحرف والأعمال الكبيرة أو الصغيرة، في السوق أو في البيت، تعتبر أعمالهم عبادة إذا قصد بها وجه الله تعالى، ونفع عباده، وإعمار الكون، والاستغناء عن الحاجة، والقيام بعمارة الأرض، وتحقيق الخلافة فيها، ولهم في كل ذلك أجر وثواب ومغفرة ورضوان عند الله تعالى.

---

(1) رواه الديلمي وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

بل إننا نلاحظ أن الإسلام اعتبر بعض الأعمال أعلى درجة، وأسمى منزلة، وأكثر ثواباً وأجراً من العبادات الخاصة، أو الشعائر المعروفة، ونص على ذلك القرآن الكريم والسّنة الشريفة مع مقارنة هذه الأعمال بالصلاة والصيام والحج، مثل الجهاد في سبيل الله تعالى لنشر دين الله تعالى، قال الله تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

(التوبة 19)

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما أجرُ المجاهد؟ قال: لا تستطيعونه، ثم قال: المجاهدُ في سبيل الله كمثلِ الصّائم القائمِ القانت بآيات الله، لا يَفترُ من صيامٍ ولا صلاةٍ حتى يرجعَ المجاهدُ»[1].

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«عَيْنان لا تمسُّهما النّار: عَيْن بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل اللّه»[1].

ومثل ذلك العلم، فإنه يفضل العبادة في الإسلام، قال تعالى:

﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾ ،

(فاطر 28)

وقال تعالى:

﴿ ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

(المجادلة 11)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«فَضْل العالمِ على العابدِ سبعون دَرَجةً، كلُّ درجةٍ ما بينَ السمَّاء والأَرْضِ».

---

(1) هذا الحديث رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

وفي رواية أخرى:

«فَضْلُ العالم على العابدِ كفضلي على أدْناكم»

وفي رواية ثالثة:

«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلةَ البَدْر على سائر الكواكب»[1].

وحذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الانقطاع للعبادة، والتبتل لها، فقال عليه الصلاة والسلام:

«لا رَهْبَانيَةَ في الإسلام»[2].

وأرشد عليه الصلاة والسلام إلى العمل الإيجابي، فقال لأبي سعيد الخُدْري:

«وعليكَ بالجهادِ فإنّه رهبانيةُ الإسلام»[3].

---

(1) الرواية الأولى رواها أبو يعلى في مسنده، والرواية الثانية رواها الترمذي، والرواية الثالثة رواها أبو نُعيم في الحلية.

(2) هذا حديث مشهور على ألسنة الناس، لكن قال ابن حجر: «لم أره بهذا اللفظ» لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي: «إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة»، وروى الدارمي عن سعد بن أبي وقاص أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن مظعون: «إني لم أؤمر بالرهبانية» وروى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرهبانية لم تكتب علينا»

(3) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/٨٢، وروى ابن حبّان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرّ: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي».

ومنع الإسلام المغالاة في التدين والعبادات، ونبذ التشدد والغلو، واعتبر الزيادة عما شرعه الله تعالى، وبيّنه رسوله صلى الله عليه وسلم خطراً جسيماً على صاحبه، وأنه قد يؤدي به إلى الخروج عن الإسلام، والكفر والهلاك والدمار في الدنيا والآخرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«جاء رهطٌ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادةِ النبي صلى الله عليه وسلم، فلمّا أُخبروا كأنّهم تقَالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبي صلى الله عليه وسلم؟! قد غفر اللّه ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليلَ أبداً، وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ، ولا أُفطرُ أبداً، وقال آخر: وأنا اعتزل النساءَ، فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله عليه وسلم اليهم، فقال: أنتم القومَ الذين قلتم كذا وكذا؟

أما - واللّه - إني لأخشاكم للّه، وأتقاكم، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأصلي وأرقد، وأتزوج النِّساء، فمن رَغِب عنْ سُنتي فليس مني»[1]،، وسيرد مزيد من الأدلة فيما بعد.

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وهذا لفظ البخاري في صحيحه 5 / 1949 كتاب النكاح، رقم 4776 طبع دار القلم بدمشق.

أما موقف الإسلام من الرهبانية تطبيقا في التاريخ كسلطة عليا، وهيئة حاكمة، تسمى «رجال الدين» تستأثر بتعاليمه وأحكامه وأسراره، وتفرض هيمنة باسمه، وتمارس حقاً إلهياً على الأفراد والحكومات، فهذا مما لا يقره الإسلام في قليل ولا كثير، لأنّ الدِّين والعقيدة في الإسلام ليس حُكراً على جماعة معينة، أو هيئة مستقلة، أو سلطةٍ علوية، ولهذا جاءت العقيدة الإسلامية من اللحظات الأولى للوحي والنبوة والرسالة واضحة كاملة، لا لبس فيها ولا غموض، ولا أسرار فيها ولاكهنوت، وأعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الملأ، ليعرفها كل من آمن بها، ويرددها على لسانه، ويكررها في عمله، ويعلمها لأولاده وأحبته وأبناء أمته، ويبلغها لكل إنسان، وتنحصر بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر، ومفتاحها:

«شهادةُ ألا إلهَ إلا اللّهُ، وأن محمداً رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

مع تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والتفويض له بما استأثر بعلمه، والتسليم بالمغيبات التي لا يعلمها إلا هو .

وأما الشريعة والأحكام : فقد بينها القرآن الكريم والسنة الشريفة وطلب من كل مسلم أن يتعلمها، وجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والشرع لا أسرار فيه، ولا غموض في تعاليمه، وأن أحكامه ومبادئه أعلنت على الناس جميعاً، وأن القرآن الكريم تكفَّل الله بحفظه، ويُتلى صباح مساء من الملايين، ليحفظوه في الصدور والسطور، وجعل الإسلام خطبة الجمعة اسبوعياً فريضة، ويقوم العلماء بتعليم الدين عقيدة وشريعة، وعبادة وسلوكاً يوميا وباستمرار، ليتزود المسلم بأحكام دينه، ثم يمارسها بنفسه، ويتغذَّى بشَهْدها فكراً وتطبيقاً، نظاماً وعملاً، فكل مسلم في حقيقته هو رجل دين سواء كان كبيراً أم صغيراً، حاكما أم محكوماً، رجلاً أم امرأة، متعلماً أم أمياً، والحاكم لابدَّ أن يكون كذلك في عمله وسلوكه، وفي سياسته وحكمه، وكل ما فرض الإسلام عليه أن يكون حوله ومعه، العلماء، يستشيرهم في المعضلات، ويرجع اليهم في الملمات، ويأخذ رأيهم فيما يجدُّ من أحوال، ويتعاون معهم في الدعوة وتبليغ الرسالة، وحفظ الحقوق، وترشيد الأمة، وأن الحاكم المسلم مسؤول دينياً ودنيوياً كبقية أفراد الأمة، ولذلك لم يعرف

التاريخ الإسلامي وجود هيئة تسمى برجال الدين، وإذا ظهرت هذه الفكرة في العصور الأخيرة فإنما هي استيراد خارجي، وتقليد جاهلي، وترديد لدعايات وشعارات لا وجود لها في الحياة، وإذا تأكد أحيانا وجود هذه الفكرة فإنها تدل على ظاهرة مرضية خطيرة بين المسلمين، وكأنهم يعلنون التقصير في الأحكام والسلوك والتطبيق، والتخلي عن الالتزام الصحيح، والتعلم الشرعي المطلوب، وتفويض الأمر والدين الى أناس يجهلون الدين إن قبلوا بذلك.

وهذا لا يتناقض مع وجود العلماء في الشرع، والدعاة والمختصين الذين يعلمون ويبلغون، ويرجع اليهم الناس في التعلم والفتوى والسؤال والأخذ ومعرفة أحكام الدين تدريجياً، واستخراج دقائق الأمور، فهذا اختصاص وليس احتكاراً، وتفاوت في درجات العلم والمعرفة وليس طبقة، ولذلك قال الله تعالى:

﴿... فَسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَتَعْلَمُونَ﴾.

(النحل 43 / الانبياء 7)

المبحث الثاني

نتائج المغالاة

والغلو في الدين

رأينا في المبحث السابق أن المغالاة في التدين مرض خطير، وأن الغلو في الدين محرم ومنهي عنه شرعاً، وأنه يؤدي الى نتائج سيئة في الماضي والحاضر والمستقبل، وعلى الفرد والأمة والمجتمع، وفي العقيدة والفكر، وفي الأحكام والشرع، وفي السلوك والتصرفات.

وإن الغلو في الدّين - بجميع أشكاله وأنواعه - مرض خبيث، وداء عضال، يؤدي بصاحبه - ومن يلوذ به - إلى الهلاك والدمار في الدنيا والآخرة، ولا يقتصر ضرره على أصحابه، بل يتعداهم ليدسيب المجتمع بمخاطره وأضرّاره، وقد عمل عمله، وظهر خطره قديماً وحديثاً، في الأمم السالفة واللاحقة، وفَتَكَ بأهله في نطاق العقيدة والإيمان، ودمّر أتباعه في مجال السلوك والأحكام، لأن الغلو في العقيدة يؤدي الى الكفر والضلال، كما أن الغلو في الأحكام والفروع الفقهية يوصل الى الهلاك والدمار، وهذه بعض الأمثلة الواقعية، والنماذج التاريخية، والصور التفصيلية لما سبق.

1 - نتائج الغلو في العقيدة:

إن الغلو في أمور العقيدة يخرج أصحابه عن دين الله تعالى، ويضعهم في حظيرة الكفار، والعياذ بالله، من حيث لا يدرون، هذا ما حصل مع كثير من الأمم السابقة الذين غالوا في صفات الله تعالى وأسمائه، أو غالوا في صفات الأنبياء، وجعلوا منهم آلهة، أو أبناء آلهة، وأشركوا مع الله آلهة أخرى، أو اتخذوا منهم قربة وزلفى إلى الله عز وجل، وسماهم القرآن الكريم كفاراً ومشركين.

فمن ذلك ما حدثنا به القرآن العظيم عن أهل الكتاب الذين غالوا في عقيدتهم بالله وبالرسل، وكانت نتيجة غلوهم الكفر والوثنية والإشراك، فقال عز وجل عن النصارى:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ ... ﴾

{النساء 171}

والمقصود في غلو النصارى في دينهم هو قضية التثليث، وما تتضمّنُه من إدعاء بُنُوة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام لله تعالى، فقالوا: إن الإله واحد في ثلاثة أقانيم: الأب والابن

وروح القدس، والمسيح هو الابن، مع الاختلاف بينهم بعد ذلك في طبيعة الابن اللاهوتية والناسوتية...، مما يخرج السيد المسيح عن طبيعة البشر، وعن كونه رسولاً من ربّ العالمين، لدعوة الناس الى التوحيد الصحيح والأخلاق الفاضلة، وأنه مؤيد من الله تعالى بالمعجزات وخوارق العادات التي دفعت القوم الى الغلو والإفتراء، لذلك بيّن تعالى في آخر الآية الحق والحقيقة في السيد المسيح، فقال عز وجل:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ .

{النساء 171}

ونهى القرآن الكريم النصارى عن الغلو في سورة أخرى، وحذّرهم من غُلُو اليهود قبلهم الذين ضلُّوا وأضلُّو، فقال تعالى:

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾.

(المائدة 77)

وحدَّد القرآن الكريم السبب في الغلو والمغالاة، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...﴾.

(المائدة 72)

وقال عز وجل:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...﴾.

(المائدة 73)

فسماهم القرآن الكريم كفاراً، ثم قرر الوحدانية لله تعالى «لا إله الا هو» ، ثم قال عز وجل:

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ...﴾ .

{المائدة 75}

وقال تعالى عن اليهود والنصارى معاً فيما غالوا في أنبيائهم، تشبهاً بالكفار:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِم يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

{التوبة 30}

كما يتخذ الغُلُو في الدين أشكالاً أخرى تؤدي الى الكفر كتحريم ما أحلَّ اللهُ تعالى من الطيبات، وتعذيب النفس، وكبت الغرائز، وترك النظافة والاغتسال، لتعريض الجسم للأمراض والأوبئة، وهو ما فعله الأحبار والرهبان فأطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، فاتخذوا منهم أرباباً من دون الله، وإن لم يعتقدوا أنهم آلهة العالم، وهذا ما حكاه القرآن الكريم عنهم، فقال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾.

{التوبة 31}

وبيّن ذلك رسول الله صى الله عليه وسلم فقال:

«أما إنهم لم يكونوا يعبدُونَهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حَرَّمُوه»[1].

ولذلك ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى:

﴿... وَمَاأُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(التوبة 31)

والقصد من هذه الآيات أن يبين القرآن الكريم للناس جميعاً العقيدة الصحيحة، وأن يكشف العاقبة الوخيمة للغلو في الاعتقاد الذي وقع فيه أهل الكتاب، كما أراد القرآن الكريم أن يحذرنا من السقوط في هذه الشباك، وأن نحرص على تصحيح عقيدتنا باستمرار على ضوء القرآن والسنة، دون خبط في

---

(1) رواه الترمذي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، في كتاب التفسير، سورة التوبة، وانظر تفسير الآيتين السابقتين في «محاسن التأويل» للقاسمي 3120/8 وما بعدها.

الدين، أو إفراط أو تفريط فيه، ولذلك قال رسول الّله صلى الله عليه وسلم:

« إني تركتُ فيكم ما إنْ اعتَصَمْتُم به فلن تَضِلُّوا ابداً: كتابَ اللّه وسنتي»[1].

فهما الأصلان المعتمدان، وفيهما النجاة والعصمة، لمن اعتصم بحبلهما.

وأن الآية الكريمة في سورة المائدة /77 التي تنهى أهل الكتاب عن الغلو في الدين سبقها آيات كريمة تبين العقيدة الصحيحة القويمة، وأن سبب الغلو والمغالاة في العقيدة هو ترك الالتزام بالتوراة والانجيل اللذين أنزلهما الله تعالى، فقال عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

{المائدة 67}

---

(1) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: صحيح الإسناد.

ثم قال تعالى:

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾.

{المائدة 68}

ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

{المائدة 69}

إلى قوله تعالى:

﴿ ... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيل اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّه فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

{المائدة 72}

وهذا الغلو في العقائد لم يقتصر على أهل الكتاب من الأمم السابقة، وإنما سرَت عدواه الى بعض المسلمين، وفشا هذا المرض الداخلي، والداء الخارجي في نهاية الدولة الأموية، وأثناء الخلافة العباسية وما بعدها، وظهرت الفرق المغالية في العقائد، وتسترت بعض هذه الفرق تحت شعارات إسلامية، وآيات قرآنية، ومذاهب صحيحة، فغالى بعض الناس في عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وظهرت في ذلك فرقتان متطرفتان على طرفي نقيض، وهما القدرية والجبرية، وغالى قوم في حبٍّ أهل البيت، وتقديم الإمام علي وتفضيله على جميع الصحابة، ثم تابعوا في تعظيمه حتى وصلوا الى الكفر كالسبئية وغيرهم من غلاة الشيعة، وغالى قوم في الالتزام المطلق بالأعمال والسلوك، وكفّروا المسلمين عامة، وهم الخوارج، وغالى فريق من المسلمين بالجانب العقلي حتى قرروا وجوب الصلاح والأصلح على الله، وهم المعتزلة، وغالت فئة بصفات الله تعالى تشبيهاً وتجسيداً، وهم المشبِّهة والمجسمة، وأفرط ناس باللامبالاة والانعزالية وهم المرجئة، وغالت جماعات بالتربية الروحية والتهذيب النفسي حتى وصلوا الى الحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوق، وهم غلاة المتصوفة .

وقد انقرضت معظم هذه الفرق المغالية، لأنها تفتقر الى مقومات الحياة، ولا تتفق مع الفطرة والواقع، وتحمل في طياتها عوامل فنائها، وتحفر قبورها بأيديها، وتعجز عن الاستمرار في التطبيق، فانهارت أمام استمرار الزمن وتقلبات الأحوال، ولم يستطع دعاتها الثبات على غلوائهم، ولم تتحمل نفوسهم المواظبة على التطرف والتشدد، وفشلوا في إقناع الناس بأفكارهم ومبادئهم لتأمين المدد لبقائهم، لأنهم إن نجحوا حيناً في اجتذاب بعض الأفراد لهذا الشذوذ والانحراف، فلن يستطيعوا ان يجذبوهم في كل الأوقات، ولئن ساعدهم الشيطان وأعوانه في أول الطريق، فسرعان مايتخلوا عنهم في منتصف الطريق، وهو ماصوره القرآن الكريم عن موقف الشيطان وحيله وألاعيبه وخذلان مريديه في أحرج الظروف، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَالاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(الانفال 48)

وقال تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

[الحشر 16 - 17]

وبيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الامر الذي سيحدث بعده، وماستفترق به أمته، وحدَّد الفئة الناجية منهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

«افترقت اليهودُ على إحدى وسبعين فرقة، وتفرَّقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي عَلى ثلاث وسبعين فرقة، كلُّها في النَّارِ إلا واحدةً، ماأنا عليه وأصحابي».

وفي رواية :

«إلا واحدةً : أهلُ السُنَّة والجماعة»[1] .

---

(1) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه،مرفوعاً.

وبقاء هذه الفرقة الناجية على العقيدة الصحيحة هي ميزة هذه الأمة على غيرها.

وان بواعث التطرف والمغالاة لاتزال موجودة، وإن اعداء الله تعالى لم يضعوا السيف ولم يستسلموا، وإن الشيطان وأعوانه لم يعدموا الغذاء المسمم في كل عصر، ولذلك يظهر في كل وقت، وحتى في وقتنا الحاضر، شراذم من تلك الفرق الضالة والمنحرفة والمغالية، لترفع رأسها حيناً، وتبث سمومها حيناً، وتفت في عضد الأمة حيناً، وتحيي أشلاء وأفكار بعض الفرقة المنقرضة هنا وهناك، ولكنها إلى أمدٍ محدود، ثم تختفي تحت التراب مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿... كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾.

{الرعد 17}

2 - نتائج الغلو في الأحكام:

ان الغلو في الأحكام، والمبالغة في العبادات خاصة، ومجاوزة الحدّ المقدر لها شرعاً، والمغالاة في التطبيق، تَخرج من نفس بواعث الغلو السابقة، وتؤدي بأصحابها الى الهلاك والبوار، ولا تقل أخطارها عن المغالاة في العقيدة والإيمان.

ويتخذ الغلو في الأحكام عدة وسائل، منها أن يُحَرِّم الشخص على نفسه ما أحلّه الله تعالى، ويمنعها من ملذاتها، ويسدّ عليها أبواب الفطرة في غرائزها وميولها، ويغلق أمامها الرخص الشرعية والمباحات الدنيوية، وهي بمثابة النوافذ التي تستنشق منها عبير الحياة، ويتغافل عما سهله الله ويسّره، ورفع فيه الحرج والمشقة، متوهماً أن ذلك قربة الى الله وزلفى، ناسياً قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

{البقرة 172}

وقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

{المائدة 87}

ثم عقب تعالى مباشرة :

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾.

{المائدة 88}

وقال تعالى مخاطباً حتى الرُّسل بذلك :

﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً... ﴾.

[المؤمنون 51]

ولما أصَرّ بعض الناس على تحريم ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم، أو تورَّعوا من أكل المستلذات ولبس الحلال جاء الخطاب الإلهي تنديداً لهم، وبأسلوب الاستفهام المتضمن للإنكار، فقال تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

[الأعراف 32]

---

(1) نقل الشيخ القاسمي رحمهُ الله تعالى أن المهايمي قال عن هذه الآية: «إنما خُلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة، فيرغبوا فيها مزيد رغبة، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان، فإذا ذهب هذا المعنى، تصير خالصة لهم يوم القيامة، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين وهو خلاف مقتضى الحكمة، وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الايمان، وهو العبادة والتقوى، ولكن من غير انهماك في الشهوات» محاسن التأويل 7 / 2672

وقد خلق الله تعالى ذلك للإنسان، وسخّره، وأنعم به عليه، فكيف للعاقل أن يرد فضل الله ونعمه، ويعرض عن منحه وعطاياه، وهو القائل:

﴿... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

{إبراهيم 34}

ومن وسائل الغلو في الأحكام أن يتشدّد الإنسان في تطبيقها، وأن يلتزم جانب الشدة والقسوة في عبادته وسلوكه، وأن يزيد في أبواب الطاعة على ما بيّنه الشرع الحكيم، ويخترع وسائل جديدة للعبادة لم يرد لها أصل في كتاب ولا سنة، وكأنه يتوهم أن الشرع قصر في وسائل العبادة وأحوالها وأنواعها، وأنه يريد أن يكمل هذا النقص، وأن يسدد هذا الخلل الموهوم، وهو لا يدري ان الخلل والتقصير من نفسه وعقله وعمله وتفكيره، وينسى أن رب العالمين هو الخالق لهذا الانسان، ويعرف ما يصلحه، وما يفسده، وما يتحمله، وما يضعفه، وما يطيقه وما لايطيقه :

﴿ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

{الملك 14}

وأنّ الله شرع لعباده ما يحقق لهم كل الصلاح والخير والمنفعة في الدنيا والآخرة، ودفع عنهم كل الفساد والضرر في الدنيا والآخرة، ومن هنا حرم الإسلام الرهبانية، لأنها انقطاع عن الحياة الدنيا، وقتل الغرائز البشرية، وكَبْت لها، وتعطيل عن وظيفة الإنسان في الكون، استخلافاً وعمارة، وبناء وعبودية.

ونلاحظ أن بواعث المغالاة، والتزام الغلو يؤدي حتماً إلى إلغاء بعض الأحكام الصحيحة المشروعة، والتقصير فيها، وأن من يتبنى فكرة مغالية، أو يتخذ سلوكاً مغالياً يكون على حساب الأفكار السليمة، والأحكام المنزلة، والتطبيق الصحيح الذي شرعه رب العالمين، واختاره لعباده، متفقاً مع فطرتهم، ومتناسباً مع قدرتهم، ومحققاً لمصالحهم في الدنيا والآخرة.

وهذا ما يقرره العلامة الشاطبي، ويبين مخاطره، ويحذر منه فيقول :

«فاعلم أنّ الحَرَج مرفوع عن المكلف لوجهين، أحدهما: الخوف من الانقطاع من الطريق وبغضِ العبادة، وكراهة التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد

عليه في جسمه، أو عقله، أو ماله أو حاله، والثاني: خوف التقصيرعند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد، المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أُخر تأتي في الطريق، فربّما كان التوغُّل في بعض الأعمال شاغلا عنها، وقاطعاً بالمكلف دونها، وربّما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما»[1].

ثم يقول الشاطبي رحمه الله تعالى: «فإنّ المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية لابدّ له منها، ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى، فإن أوغل في عمل شاق فربما قطعه عن غيره، ولا سيما حقوق الغير التي تتعلق به، فيكون عبادته أوعمله الداخل فيه قاطعاً عما كلفه الله به فيقصّر فيه، فيكون ملوماً غير معذور، إذ المراد منه القيامُ بجميعها على وجه لايُخلّ بواحد منها، ولابحالٍ من أحواله»[2].

---

(1) الموافقات ، للشاطبي 2/96.

(2) الموافقات 2 / 102 .

3 - نتائج الغلو على السلوك:

ويظهر من الكلام السابق، ومن عبارات الشاطبي الأثر الخطير الذي يقترن في الأحكام والسلوك نتيجة الغلو والمغالاة، وهذا أمر ظاهر وملموس ومشاهد في الحياة، وتدل الوقائع أن هذا المغالي لن يصبر على هذا التغالي والمبالغة، وأن جسمه وعقله وروحه وفكره سيضيق به ذرعاً، وينتظر الوقت المناسب ليكبو بصاحبه، ثم يطيح به في منتصف الطريق، وقد يصاب المرء بردة فعل معاكس تماماً، ليتخلى عن الدين كله، ويكرهه، ويسيء به الظن، والدين من ذلك براء، وإنما جاءه هذامن نفسه الأمّارة بالسوء، وهذا ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله، مُنْذِراً ومحذِّراً، ومهدّداً ومتوعداً، ومرغّبا ومرهبّا، وواعظاً وناصحاً، فقال:

«إنَّ هذا الدين متين، فأوغلوا به برفق، إنَّ المنْبَتَّ لا أَرْضاً قطعَ، ولا ظهراً أبقى»[1].

والمنبت هوالذي انقطع في سفره، وهلكت دابته، وعجز عن تحقيق مقصده.

---

(1) رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، ورواه البزار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً.

قال أبو عبيد: «إن هذا الذي كلَّف نفسه فوق طاقتها من العبادة بقي حسيراً، كالذي أفرط في إغذاء السَّير حتى عطبت راحلته، ولم يقض سفره»[1].

وقيل : «قاله صلى الله عليه وسلم لرجل اجتهد في العبادة حتى هجمت عيناه، أي غارتا»[2].

وقال ابن الأثير عن «المنبت»:

«يقال للرجل إذا انقطع به في سفره، وعطبت راحلته: قد انبت، من البت: القطع، يريد أنه بقي في طريقه، عاجزاً عن مقصده، لم يقضِ وَطَرَه، وقد أعطبت دابته»[3].

وبيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطر الغلو في السلوك، وأنه يؤدي الى الهلاك، فقال عليه الصلاة والسلام:

«يا أيُّها النَّاس، إياكم والغُلوَ في الدِّين، فإنَّه أهلكَ من كانَ قبلكم الغُلُوُّ في الدِّين»[4].

---

(1) الأمثال لابي عبيد ص 36.

(2) الأمثال لابي عبيد، هامش ، ص 36.

(3) النهاية في غريب الحديث 1 / 92.

(4) رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه، واللفظ له، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

وسبب الحديث حكم شرعي عملي، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غَدَاة العقبة، وهو على ناقته: «الْقُطْ لي حَصَىً» فلقطت له سَبْع حصيات، هنَّ حَصَى الخَذْف، فجعل يَنْفُضُهُنَّ في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا»[1].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه على المنهج الرباني الصحيح للعبادة والسلوك، ويحذرهم من المغالاة والغُلُو في الأحكام، كما سبق في حديث أنس رضي الله عنه في الرهط الذي جاء إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فلمَّا أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتعاهدوا على قيام الليل وصيام النهار واعتزال النساء، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«انتم القومُ الذين قلتم كذا وكذا؟ أما إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء،

---

(1) سنن ابن ماجه 2 / 1008.

وختم الحديث بقوله الحكيم : «فمن رغب عن سُنتي فليس مني»[1].

ونلاحظ أن بواعث الغلو تحركت في نفوس الصحابة بحسن نية، أثناء جلْسَتهم الروحية ومحاولة التنافس في مرضاة الله تعالى، وحركهم الإيمان الصحيح أولا للسؤال عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعة والعبادة ليقتدوا به، ويلتزموا بمنهجه، فذهبوا للبحث عن ذلك في بيوته، فلما عرفوها وجدوها كأنها قليلة، وقالوا: أين نحن من رسول الله، وقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، ووقف لهم الشيطان بالمرصاد ليفتنهم، وأراد أن يصيد في الماء العكر، ويستغل فيهم الشوق للطاعة والعبادة والطمع بالجنّة، والخلود في الفردوس الأعلى، كما فعل من قبل مع آدم عليه السلام، وبدأ الشيطان يوحي إليهم ما يلبي رغبتهم في الثواب، وشوقهم الى النعيم، ويرسم

---

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا لفظ البخاري، ومن رواية عبد الرزاق أن الثلاثة هم علي بنّ ابي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم (الترغيب والترهيب 43/3 هامش).

لهم طريقاً شططاً، يغاير طريق الإسلام، وتجاوبت فوراً النفس الأمارة بالسوء، فقالوا ما قالوا، فاعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيهم خروجاً عن الإسلام، وبعداً عن الدِّين، مع شرف الغاية التي قصدوها، ونزاهة المقصد الذي طلبوه، لأن الله تعالى بيَّن الغايات النبيلة المقدسة، وشرع الوسائل التي توصل اليها.

وفي صحيح البخاري: «باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغُلُو في الدِّين والبدع»، وذكر فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«لا تُواصلوا، قالوا: إنَّك تواصل؟! قال: لستُ مثلكم، إني أبيتُ يُطْعِمني ربِّي ويَسْقيني، فلم يَنْتَهوا عن الوِصَال، قال: فواصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم يومين، أو ليلتين، ثم رأوا الهلالَ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو تأخَّر الهلالُ لزدْتُكم، كالمنكي بهم»[1].

---

(1) صحيح البخاري بحاشية السندي 4 / 176، وقوله صلى الله عليه وسلم «كالمنكي» من النكاية، وهي القهر، وفي رواية «كالمنكل» من النكال، وهو العقوبة الرادعة، والحديث رواه مسلم أيضاً في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، وانظر صحيح البخاري، كتاب الصيام، باب الوصال، وباب التنكيل لمن أكثر الوصال 2 / 693، 694، 6 / 2661 ط دار القلم بدمشق.

ثم ذكر البخاري حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «صنع رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم شيئاً ترَخّص فيه، وتنزّه عنه قوم، فَبَلَغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فحَمدَ اللّه، ثم قـال:

«مابال أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعه، فواللّه إني أعلمهُم باللّه، وأشدُّهم له خَشْية»[1].

وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام الدهر، أي صيام جميع الأيام، فقال: يا رسول الله، كيف بمن يصوم الدّهرَ كلّه؟ قال :

«لا صَامَ ولا أفْطر»

وفي لفظ :

«ماصَامَ ولا أفطر»[2].

---

(1) صحيح البخاري بحاشية السندي 4 / 176 ، 1 / 230 ، صحيح البخاري 2663/6 ، 5 / 2263 ، والحديث رواه مسلم في كتاب الفضائل باب علمه صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وشدة خشيته، وعلق الحافظ ابن حجر على الحديث فقال: «إن الخير في الاتباع ، سواء كان ذلك في العزيمة أو الرخصة».

(2) رواه أبو داود وغيره عن أبي قتادة رضي الله عنه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أخبره أن أمَّه نذرت أن تحجَّ ماشية؟ فقال:

«مُرْها فلتركبْ، إنَّ اللّه لغنيٌّ عنْ مشْيها »[1].

وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما شرعه، أو أذن به، وأن ليس كل عمل يعتبر قربة لله تعالى بحسب ظن الناس وتخيلاتهم، وما توحيه اليه أهواؤهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بيْنا النبي صلى الله عليه وسلم يَخْطُب، إذا هم برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو اسرائيل، نَذَر أن يقومَ ولا يقعُدَ، ولا يَسْتظلَّ ولا يتكلمَ، ويصومَ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

«مُرُوه فليتكلَّمْ، وليَسْتَظِلَّ، وليقعد، وليُتمَّ صومَه »[2].

وأعلن الرسول الكريم اكثر من ذلك، وأن سلوك المغالاة والغلو يودي الى الهلاك، فقال عليه الصلاة والسلام:

« هَلَكَ المتنطعونَ » قالها ثلاثاً [3].

---

(1) رواه الامام أحمد و أبو داود ، وروى مثله البخاري ومسلم بلفظ آخر.

(2) رواه البخاري، واسم ابي اسرائيل يسير، مصغر يُسر ضد العسر، وهو أنصاري، ونذره أن لا يتكلم أي بغير ذكر الله تعالى.

(3) رواه مسلم في صحيحه، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.

وفسر الإمام الغزالي «المتنَطّعين» بالمتعمقين في البحث والاستقصاء، وفسرها النووي رحمه الله تعالى بأنهم المتعمقون المشدِّدون في غير موضع التشديد، وهذا يفيد تأكيد النبي صلى الله عليه وسلم على هلاك المغالين في أقوالهم وأفعالهم، وفيه ذم التكلف والتشدق بالكلام، وأن الشدّة لا تأتي بخير،[1]. ولا تتفق مع منهج الإسلام، ويجب تجنبها والتخلي عنها.

وعن جابر رضي الله عنه«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح الى مكة في رمضان، حتى إذا بلغ كُراَع الغَمِيم فصام وصام الناس، ثم دعا بقَدَحٍ من ماء فرفعه، حتى نظر النَّاس إليه، ثم شَرِب، فقيل له: إنَّ بعض الناسِ قد صام، فقال:أولئك العُصاةُ،» وفي رواية: «فقيل له: إنَّ بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاةُ، أولئك العصاة» وفي رواية : «فقيل له: إنَّ بعض الناس قد شقَّ عليهم الصِّيامُ، وإنما ينظرون فيما فعلتَ فدعا بقَدَحٍ من ماء بعد العصر»[2].

---

(1) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي 168/1.

(2) رواه مسلم.

إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة التي َحذّر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغلو في العبادة، أو التشدد في أدائها، ومنع من الخروج عن الحدود التي رَسَمها رب العالمين، وسمى المخالفين لمنهجه «عصاة»، لأن التغالي يجر إلى العصيان، وهو ما ثبت في حديث آخر عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«منْ لم يَقْبل رخصة اللّه عز وجل كان عليه من الإثم مثلَ جبال عَرَفة»[1].

وقد وقعت حادثة طريفة، وقصة عملية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تجمل النهي عن المغالاة، وتدعو الى الاعتدال في العبادة، ووجوب الأخذ بالرفق للنفس خشية السآمة، وأنه لا رهبانية في الإسلام الذي يدعو إلى العمل للدنيا والآخرة، وتكشف عن النتائج السلوكية للمغالاة، وثبتت هذه القصة في الصحيحين بروايات متعددة، ،معظم ألفاظها فيهما، وقليل منها في أحدهما، وجمع العلامة النووي رحمه الله تعالى بينها[2].

---

(1) رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير.

(2) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين 1 / 172 و ما بعدها.

وسوف نذكرها بطولها دون تعليق أو تعقيب عليها، لأنها تتحدث بنفسها عن العظات والفوائد المطلوبة، وهي :

«عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أُخبِرَ النبي صلى الله عليه وسلم أني أقول: واللّهِ لأصُومَنَّ النهار، ولأقومنَّ الليلَ ما عِشْتُ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «أنت الذي تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلته بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ الله، قال: «فإنك لاتستطيع ذلك، فصُمْ وأَفْطِر، ونَمْ وقُم، وصُمْ من الشهر ثلاثةَ أيام، فإنَّ الحسنةَ بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر!» قلت: فإني أطيقُ أفضلَ من ذلك، قال: «فصُمْ يوماً وأفطر يومين» ، قلت: «فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصُمْ يوماً وأَفْطِر يوماً، فذلك صيام داود صلى الله عليه وسلم، وهو أعْدَل الصيام» ، وفي رواية: «هو أفضل الصيّام» فقلتُ: فإني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا أفضل من ذلك»، ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي!، وفي رواية: «ألم أُخْبر أنك تصوم النهارَ، وتقوم الليل؟» قلت: بلى يارسول الله، قال: فلا تَفْعل، صُمْ وأَفْطر، ونم

وقم، فإنَّ لجَسَدِك عليك حقاً، وإن لعينَيْك عليك حقاً، وإنَّ لزوجك عليك حقاً، وإن لزَوْرك (أي لضيفك) عليك حقاً، وإن بِحَسَبك (الباء زائدة أي كافيك) أن تصوم في كل شَهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنةٍ عَشْرَ أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر» فشدَّدت فشُدِّدعلي، قلت: يا رسول اللّه إني أجدُ قوة، قال: «صُمْ صيام نبيِّ اللّه داود، ولا تَزِد عليه» قلت: وما كان صيامُ داود؟ قال: نصف الدَّهر»، فكان عبد الله يقول بَعْدَ ما كبِرَ: ياليتني قَبِلتُ رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي رواية :«ألم أُخبر أنك تصومُ الدهرَ، وتقرأ القرآن كلَّ ليلةٍ؟» فقلت: بلى يارسول الله، ولم أرِدْ بذلك إلا الخير، قال: فصُمْ صَوم نبي اللّه داود، فإنه كان أعْبَدَ النَّاس، واقرأ القرآن في كل شهر»، قلت: يا نبي الله، إني أطيقُ أفضلَ من ذلك. قال: «فاقرأه في كل عَشْرٍ» قلت: يانبي اللّه، إني أطيقُ أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل سَبْعٍ، ولا تزِد على ذلك» فشددت فشُدِّد عليَّ، وقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: « إنك لاتدري لعلَّكَ يطول بك عُمُرٌ»، قال: فصِرت إلى الذي قال لي النبي صلى الله عليه وسلم، فلمّا كبِرتُ وَدِدتُ أني كنتُ قبلتُ رُخصةَ نبي اللّه صلى الله عليه وسلم وفي،رواية:

«وإن لولدك عليك حقاً» وفي رواية: «لا صام من صام الأبد!» ثلاثاً، وفي روايةٍ: «أَحَبُّ الصيامِ إلى اللّه تعالى صيامُ داود، وأحبُّ الصلاةِ إلى الله تعالى صلاة داود: كان يَنَامُ نصفَ الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدُسَه، وكان يصومُ يوماً ويُفطرُ يوماً، ولايَفِرُّ إذا لاقى»، وفي رواية قال: «أنكحني أبي امرأة ذات حَسَب، وكان يتعاهدُ كَنَّتَه (أي امرأة ولده) فيسألها عن بَعْلها، فتقول له: نعمَ الرجلُ، لم يطأ لنا فِراشاً، ولم يُفَتِّش لنا منذ أتيناه، فلمّا طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «الْقني به»، فلقيتُهُ بعدُ فقال: «كيف تصوم؟» قلت: كلَّ يومٍ، قالَ: وكيف تَخْتِمُ؟» قلت: كلَّ ليلة، وذكر نحوَ ماسبق، وكان يقرأ على بَعْضِ أهله السُّبُع الذي يقرؤه يَعْرِضَه من النَّهار، ليكون أخفَّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوّى أفطر أياماً وأحصى، وصام مِثْلَهُنَّ، كراهية أن يَتْرُكَ شيئاً فارقَ عليه النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

---

(1) هذا الحديث برواياته المتعددة رواه البخاري ومسلم، فروى بعضها البخاري في كتاب الصوم، باب صوم الدهر، وباب حق الضيف في الصوم، وباب حق الجسم في الصوم، وفي كتاب الأنبياء، ورواه مسلم في كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر. (انظر: نزهة المتقين 1 / 174).

وباختصار فإن الإسلام حرّم المغالاة في جميع صورها وأشكالها، ومنع التعنت والعنت في الدين لخطورة النتائج المترتبة عليه، وأعلن للبشرية أن هذا الدين يسر وسمح، يلتقي مع الفطرة البشرية، وينسجم مع النفس الإنسانية، ويتناغم مع الواقع والحياة والتطبيق، وهذا ما أعلنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

«إنَّ اللّهَ تعالى لم يَبْعثْني مُعَنِّتاً ولا متعَنِّتاً، وإنما بعثني مُعَلِّماً مُيَسِّراً»[1].

وهذا الحديث بمثابة توضيح وبيان وشرح لما بيّنه القرآن الكريم عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأوصافه التي اصطفاه الله تعالى عليها، وشريعته التي كُلف بتبليغها والدعوة إليها، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

(التوبة 138)

---

(1) هذا الحديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

فقد وصفه الله تعالى بصفتين :

«الرأفة والرحمة بالمؤمنين».

وهما من صفات الله تعالى، ولم يِصف الله تعالى نَبياً ولارسولاً بصفتين من صفاته إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما بيّن تعالى أن رسول الله يبين شرع الله ودينه، ولايتبع أهواء الناس، ولايطيع رغباتهم التي تؤدي إلى العنت، فقال تعالى :

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ .

- {الحجرات 7}

ويمكننا تلخيص نتائج الغلو في الدين، والمغالاة في التدين، على العقيدة والأحكام والسلوك في الأمور التالية:

1 - إن الغلو في الدين، وخاصة في أمور العقيدة، يؤدي إلى الكفر، والعياذ بالله تعالى.

2 - إن الغلو في الطاعة، والتشدد في العبادة، يؤدي إلى هلاك الأفراد والأمم.

3 - إن المغالاة في التدين، والمغالاة في السلوك، تعارض منهج الإسلام في بساطة العقيدة وسماحتها، وتعارض منهج الإسلام في يُسْر الدين وسهولته، وما ورد به من رفع الحرج والمشقة على المسلمين، وسيرد مزيد تفصيل لذلك في مبحث «الاقتصاد في التدين»، ولذلك يُخشى على دين المتشدد والمترهب والمتنطِّع، بأن يدير ظهره - في وقت ما - لأحكام الدين، ويشرع لنفسه مايعارض منهج الدين، وكأنه يعتقد أن في الدين تقصيراً ونقصاً يُريدُ أن يكمله .

4 - إن الغلوّ والترهبّ يؤدي بصاحبه إلى الانقطاع في منتصف الطريق ، لأنه يَعْجز عن مواصلة الرهبانية ، ومقاومة الفطرة البشرية ، والغرائز الإنسانية ، وقد يقع في شذوذ جنسي، أو فكري ، أو اجتماعي...، كما أن المغالاة في الدين تورث السأمة والملل منه ، وتحدث الضَجَر والتبرم بالأحكام ، وتدفع إلى كراهية الشرع والتشريع ، والعمل والسلوك والتطبيق، وتبعث على النفور من الدِّين والتَّدَيُّن ، والتنفير من قبول الدعوة والإقبال عليها ، وكل هذا مفاسد خطيرة ، والقاعدة الفقهية تقول:

«دفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح»

وهذا على فرض وجود مصلحة في التشدد والمغالاة وهو نـادر.

5 - وخلاصة القول :

فإن الدين براء من الغلو والمغالاة ، وأن الغلو في الدين مظهر من المظاهر المرضية فيه، وأن هذا الغلو يمثل أحد الشوائب التي تعكر صفوه ، وتغطي جلاءه ، وتنفر الناس منه،

وتفتح الباب أمام البدع والابتداع، وتظهر الفرق الضالة، والانقسامات القاتلة ، والمواقف المهلكة التي تبدأ بالانحراف من زاوية صغيرة حادة ، إلى أن تتسع الفجوة ، ويزيد البعد عن الحق ، وتبعد الشقة عن الصراط المستقيم ، والمنهج القويم .

المبحث الثالث

التفريط في أحكام الدين

لقد ابتلي فريق من النَّاس بالتقصير في الدِّين ، والتفريط في أحكامه ، كما ابتلي آخرون بالمغالاة في الدِّين ، وكما كان الغلو إفراطاً في العقيدة ، والأحكام والسلوك ، فإن التقصير في الدِّين تفريط في مقتضيات العقيدة ، وتنفيذ الأحكام ، وتشويه السلوك ، وهو ماسنعرضه في هذا المبحث .

والغلو في الدين والتفريط فيه مرضان خطيران ينتابان المتدين ، ويؤديان في الغالب إلى الفساد والهلاك ، والخروج عن جادة الحق والصواب .

تعريف التفريط :

التفريط من فَرَط في الأمر فرطاً قصَّر به وضيَّعه ، وفرَّط الشيءَ، وفرَّط فيه تفريطاً ضيَّعه وقدم العْجزَ فيه وقصَّر ، خلافاً للإفراط من أفرط إفراطاً أسرف وجاوز الحد .

والتفريط في الدِّين: هو التقصير في أحكامه وتضييع حقوقه ، وإظهار العجز عن القيام بواجباته [1].

بواعث التفريط في الدِّين:

تتفق بواعث التفريط في الدين مع بواعث الغلو والمغالاة والإفراط فيه ، وتنبعان من نفس المصادر الداخلية ، والخارجية ، وينفخ الشيطان في بوق كل منهما ، ولكن مع تغيير في الاتجاه ، فالغلو في الأحكام مثلاً يتحرك بباعث التشدد في الدين، والالتزام بحرفية النصوص ، والتخيُّل أن صاحبه يريد الاسراع في تحقيق الهدف ، والارتفاق في منزلته ، ويأخذ نفسه بالشدّة، ويفرض عليها مزيداً من الواجبات والالتزامات ، ويحرمها من المباحات ، ويتوهم النقص في التشريع والأحكام ، والتفريط في الدِّين يتجه عكس ذلك تماماً، ويصدر من منبع واحد، فإذا أوحى الشيطان وأعوانه إلى بعض المتدينين بالتزمت والمغالاة في

---

(1) انظر : المصباح المنير 642/2 مادة فَرّط، المفردات في غريب القرآن ص405، القاموس المحيط 377/2، النهاية في غريب الحديث 435/3 . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 184/5.

العقيدة والأحكام والسلوك ، فإنهم يوحون إلى بعض أتباعهم عكس ذلك بالتقصير في مقتضيات العقيدة، وتضييع الأحكام، وإظهار العجز، وسوء الظن بحكمة الأحكام وغاياتها، ومظاهرها وأشكالها ومضمونها ،من أهم بواعث التفريط:

1- الكسل :

إنَّ المقصر يميل إلى الارتخاء والكسل والاستسلام للراحة والخلود الى الأرض ، ويمنِّي نفسه الأماني، ويقعد عن أداء الأعمال ، ويفرِّط في عدم المداومة عليها، ويرضي نفسه بالأدون من الأمور، ويتهرب من الأحكام والتكاليف والواجبات ، وكأنه يريد أن تقف الحياة عن سَيْرها ، ويظنّ أن الله سيسخر له بعض المخلوقات لتأمين رزقه ، وتحقيق آماله وأحلامه ، والدفاع عن نفسه وعرضه ووطنه وأمته ومصالحه. وهذا مابيَّنه رسول الله بقوله :

«والعاجز من أتبع نفسَه هواها، وتمنَّى على الله الأماني»[1]

وهو مايعرف بالتواكل الذي سنوضحه تفصيلاً - ان شاء الله تعالى.

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً.

ونتيجة لهذا التفكير المحدود، والسلوك القاصر، يبدأ الكسول بالتفلت من أحكام الدِّين، ويتهاون بأداء الواجبات، ويتهرب من الالتزام بالآداب المطلوبة ، ويسوِّف بالقيام في العبادات ، ويتمنَّى على الله الأماني العريضة ، والآمال الواسعة، ويردِّد عبارات شيطانية دخيلة : كالأجلْ البعيد ، وضيق الوقت، وكثرة الأعمال ، والانشغال بشؤون المعيشة، والأمل بالتوبة، ويقول : إن باب التوبة مفتوح أمامه في المستقبل ، وأنه سيؤوب إلى ربّه بعْد لأي ، ويتألى على الله تعالى في الغيب ومعرفة الغد، وكأنه يحمل وثيقة ضمان وتأمين على بقاء الحياة ، ولايدري أنه يغتر بالحاضر ، وييأس بالشقاء والحرمان من رحمة الله وفضله ورعايته ، وأنه يماطل في الحقوق ، وينسى أو يتناسى أن الأجل قريب منه، سواء كان طفلاً أم شاباً أم كبيراً ، وسواء أكان قوياً أم ضعيفاً ، وسواء أكان صحيحاً أم عليلاً ، وسواء أكان في القمة أم في الحضيض:

﴿ ... فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

(الاعراف 34)

﴿ ... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

{لقمان 34}

ويحذّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من هذا المرض الخفي، ويكشف عن هذا العجز أو الغرور ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

«اغتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: حياتَك قبل مَوْتك، وصحّتَك قبْلَ سَقَمك، وفَراغَك قبْلَ شُغْلك، وشبابك قبل هَرَمِك، وغِناكَ قبلَ فقرك»(1).

ويرشد الرسول الكريم إلى الحق والصواب فيقول عليه الصلاة والسلام :

«بادِرُوا بالأعمال سَبعاً: هل تَنْتَظِرون إلا فَقْراً مُنْسِياً، أَو غِنىً مُطْغِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُفْنِداً، أو مَوْتاً مُجْهِزاً، أو الدَّجال، فإنّه شَرُّ منتظَر، أو السّاعة، والسّاعة أدْهى وأمرّ»(2).

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(2) هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي عليه.

أي أسرعوا إلى عمل الصالحات ، والاشتغال بالطاعات والعبادات قبل أن تجئ هذه السبع التي تشغلكم عنها، وهذا تصديق لقول الحق تبارك وتعالى فيما أكده من الإسراع لعمل الخير والبر ، فقال تعالى :

﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(آل عمران 132 - 133)

وهو دعوة إلى الطاعة والعمل والسعي، وإلى الإسراع والتوبة، ووصف الله تعالى عباده المؤمنين المتقين الصالحين في كتابه العزيز فقال تعالى :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

(آل عمران 114)

وأكد هذا وبيّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«بادرُوا بالأعمالِ الصَّالحةِ، فستكونُ فتنٌ كقطعِ اللّيْلِ المظْلِمِ، يُصْبِحُ الرجلُ مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمْسي مؤمناً ويصبحُ كافراً، يبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِن الدنيا»[1].

أي ابتدروا وسارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل ظهور الفتن والعوائق والموانع والذنوب والمحن والمصائب التي تحول بين المرء وعمل الخير، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً:

«ياأيها النَّاسُ تُوبُوا إلى اللّه قبْلَ أنْ تموتُوا، وبادرُوا بالاعمال الصالحة قبلَ أن تموتوا، وبادِرُوا بالأعمال الصالحة قَبْلَ أن تشْغَلُوا»[2].

---

(1) هذا الحديث رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً

(2) هذا الحديث رواه ابن ماجه في «سننه» 343/1 عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً، وله تتمة طويلة، منها:

«وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا ... الحديث».

وهذا ما نلمسه في الحياة، ويراه كثير من المقصرين، ولكنه بعد فوات الآوان، وضياع الوقت والفرصة، وهو ما يحذر منه العقلاء والمفكرون ورجال الإدارة والأعمال في بلد واع ومتطور، وفي كل وقت يسعون فيه إلى البناء والتقدم، والرقي والحضارة، والاستقلال والعزة.

2 - اتباع الشهوات:

إنَّ الإنسان جسم وروح، وإن التديُّن فطرة في النفوس، وإن النفس البشرية ذات نزعة مادية أيضاً، وتتركب من عدد من الغرائز والشهوات، ويقوم العقل بتحقيق التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، ويأتي الدين والشرع لتوجيه الطاقات نحو الأهداف السامية وتلبية الغرائز بالطرق السليمة، فإن قصَّر العقل أو تخلف عمله، أو غفل عن الواجب، أوتعارضت أمامه المُعطيات، أو تغلبت عليه نوازع الهوى، وظهر التفلت والتفريط في الشرع، ترجح جانب المادة، وتحركت الشهوات والغرائز بالاتجاه المنحرف، وانطلقت في الحياة بدون حد ولاقيد، وسارت في طريق الغواية والضلال، وهذا يؤدي إلى تجاوز حدود الشرع

والعقل، وارتكاب المعاصي، والانغماس في المحرمات، والغفلة عن أحكام الدين، وتجاوز المقدسات الدينية، والإعراض عن العبادات، والتحايل على بقية الأحكام للتفريط فيها والتهرب منها.

وهذا الداء والمرض بيّنه القرآن الكريم، وأزاح الستار عنه، فقال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾

(آل عمران 14)

وقال تعالى عن الإنسان:

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾

الخير : المال (العاديات 8)

فبيّن القرآن الكريم أن هذه الشهوات والغرائز فطرة عند الإنسان، ولكن يجب تهذيبها، وتربيتها، وتوجيهها للخير، والتسامي بها نحو الفضائل والمثل:

﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾

وبيّن القرآن الكريمِ وصف هؤلاء المفرطين المتبعين للشهوات، فقال تعالى:

﴿... وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ .

{النساء 27}

وقال تعالى :

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ .

{مريم 59}

وأماط القرآن الكِريم اللثام عن حقيقة الإنسان، وماهية طبيعته من الجسم والروح، وأنه قد يتبع متطلباته الجسمية، ويقصر عن الغذاء الروحي، ثم قرر القرآن الكريم وجوب التوازن بين الجانبين، وأن الجانب الروحي والعمل للآخرة أسمى وأبقى، وأثمن وأغلى، فقال تعالى :

﴿المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ .

{الكهف 46}

وقال تعالى :

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * والآخِرَةُ خَيرٌ وَأَبْقَى ﴾ .
{الأعلى 16 - 17}

وبعد أن ذكر الله تعالى الذين منَّ اللَّه عليهم بالأثاث والمفروشات والسكن الأثير ووقفوا عنده، وانشغلوا به حتى وقع بهم الهلاك، ذكر المؤمنين وما قدَّموا من الباقيات، وأنَّه خَيْرٌ لهم في الدنيا، وأفضل في العاقبة، فقال تعالى :

﴿ وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئياً ﴾ ، ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ .
{مريم 74 ، 76}

وهذا ما أراده الله تعالى في تشريع منهج الاعتدال في قوله تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الأُخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأُحْسن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .
{القصص 77}

وهو ما سنراه تفصيلا -- إن شاء الله تعالى - في مبحث الاقتصاد في التدين.

3 - ضعف الإيمان :

ويقف خلف العاملين السابقين، والباعثين على التفريط - يقف وراءهما عامل مهم وأساسي، وهو ضعف الإيمان واليقين الذي يضع الحق في نصابه، ويُبصر الإنسان بالحقيقة، ويحميه من الانحراف والإفراط والتفريط، ومتى تعرض الإيمان للوهن والضعف في القلوب والنفوس تحركت النزعة المادية للإغراق في الشهوات، وممارسة الفتن، وسيطرت الغرائز على صاحبها، وتحكمت في حياته، وصرفته عن مقتضى العقل والدين والشرع، فيهمل الجانب الروحي من قلبه، ويلغيه من حياته، ويتهرب من واجباته، ويتلاعب في الأحكام حسب هواه، وتتَميّعُ عنده مقاصد الشريعة، وأهدافها الأساسية، وينظر الى الحياة بعين واحدة، ومن زاوية ضيقة، ولا يفكر إلا بما يقع عليه بصره.

ومن هنا يبين الرسول الكريم اثر غياب الإيمان وضعفه، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«لا يزْني الزاني حين يَزْني وهو مؤْمنٌ، ولا يَشْربُ الخمرَ، حين يَشْرَبُ، وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمنُ، ولا يَنْتَهب نُهْبَةً، يرفعُ الناسُ إليه فيها أبصارهم، حين ينتهبُها وهو مؤمن».

وفي رواية: «ولا ينهبُ نهبْة ذات شَرف..»، وفي رواية ثالثة: «ولا يقتل وهو مؤمن» وفي رواية رابعة: «ولا يَغُلُّ أحدُكم حين يَغُلُّ، وهو مؤمن، فإياكم إياكم»[1].

قال البخاري - تفسيره: أن يُنزع منه، يريد الإيمان[2].

وذكره مسلم تحت باب «بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية»[3].

وقال فيه الإمام النووي: «فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي، وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء، ويراد نفي كماله ومختاره».

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري، واللفظ الأول له، ومسلم، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، والنهبة أخذ الشيء من آخر عياناً وقهراً.

(2) صحيح البخاري 875/2.

(3) صحيح مسلم 41/2.

ثم نقل أقوال بعض العلماء، فقال: «وتأول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بورود الشرع من تحريمه، وقال الحسن وأبو جعفر الطبري معناه :

«ينزع منه اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم الذم، فيقال له: سارق وزانٍ، وفاجر وفاسق، وحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه يُنزع منه نور الإيمان وفيه حديث مرفوع، وقال المهلب: ينزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى»[1].

4 - وساوس الشيطان:

ويغذي هذه البواعث السابقة باعث خفي وخطير، ويجري من الإنسان مجرى الدم، وهو الشيطان الذي يوسوس في النفوس، ويدفعها إلى التقصير في الدين، والتفريط في أحكامه، ويغري ضعاف الإيمان بالتحايل والتهرب، ويثير الفتن في النفوس، ليبعدها عن مرضاة الله، ويوقفها في المهالك والرّدى.

---

(1) - شرح النووي على صحيح مسلم 2 / 41 ، 42.

وهذا الباعث الخبيث لايخفى على أحد، ولم ينج منه أحد، ولكل إنسان قرين سوء، يحمله على الشر حملاً، ويزين له الباطل تزيينا، إلارسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل قرينه مؤمناً، ولذلك كشف لنا القرآن الكريم هذه الخفايا، وحذرنا من الوقوع فيها، وأرشدنا إلى طريق الخلاص منها، وبيّن لنا الوسائل للتغلب على وساوس الشيطان، وذلك في آيات كثيرة ومتعددة، كقول تعالى :

﴿... إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

(المائدة 90)

ثم أعقب ذلك مباشرة، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ .

(المائدة 91)

ثم حَذَّر القرآن الكريم من اتباع خطوات الشيطان، لأنها توقع في الرَّدَى والضلال فقال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

{النور 21}

ووضَّح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث لاتحصى، ووَعَظ المؤمنين إلى الحق والصراط السوي، وكشف لهم مَداخل الشيطان ومنافذه، وأنه يعترض المؤمنين في كل سبيل لإضلالهم وغواتيهم، فمن ذلك ماروا ه جابر رضي الله عنه قال: كنّا جلوساً عندَ النبي صلى الله عليه وسلم، فخطَّ خَطّاً هكذا أمامه (يعني خطاً مستقيماً في الرمل) فقال:

«هذا سبيلُ اللهِ، وخطَّين عن يمينه، وخطَّين عن شماله (مائلين)، وقال: هذه سُبُل الشيطان».

وفي رواية: «على رأس كل منها شيطان يدعو إليه»[1].

ثم تلا هذه الآية:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

{الانعام 153}

5 - دعاة الشر والفساد:

ومن البواعث على التفريط في الدّين، والتقصير في أحكامه، ماينفثه أعداء الله وأعداء الدين في نفوس الناس من تشكيك وتضليل، وما يقذفونه من افتراء وشبهات، ومايُلَقِّنونَه من دعايات باطلة، وشعارات فارغة، وأقوال آثمة، وأماني براقة خادعة، وحقائق ملفقة ومزورة، بقصد إبعاد الناس عن دين الله وصراطه المستقيم، فيعرض فريق عن شريعة الله، ويتفلتون من

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد والدارمي عن جابر وابن مسعود رضي الله عنهما (مسند أحمد 465/1، سنن الدارمي 67/1).

أحكامه شيئاً فشيئاً، ويغرونهم بالفتن والشهوات، ومتاع الحياة الدنيا كالمال والجاه والسلطة، ويتعاون في هذا المجال أعوان الشيطان من الإنس والجنّ، ويجمعهم الإثم والعدوان، ويحملون راية الشر ليستمر الصراع الدائم مع الخير.

6 - الجهل بالدين:

ومن بواعث التفريط والتقصير الجهل بأحكام الدين، والجهل إما كليّاً وإما جزئياً، والإنسان عدو مايجهل، ولذلك ورد في حديث علي رضي الله عنه :

«لايُرى الجاهلُ إلامُفْرِطاً أومُفَرِّطاً»[1].

ويدخل في ذلك الفهمُ الخاطئ عن الدين والإسلام، والتأثر بما هو دخيل عليه، والتطبيق الخاطئ لأحكام الدين، والأداء الجامد أو الَحرْفي لبعض أحكامه، دون السعي وراء أهداف الشرع، ومرامي الأحكام التي شرعت من أجلها، والغفلة عن

---

(1) النهاية في غريب الحديث 435/3، وقال ابن الأثير: «هو بالتخفيف المسرف في العمل، وبالتشديد المقصرفيه» المرجع السابق، وقال البخاري: «فرّطت: ضيّعتُ من أمر الله» صحيح البخاري 445/1.

مقاصد الشريعة ومحاسنها، وما تقدِّمه لأهلها من منافع وخيرات، وما تدفعه عنهم من مفاسد وآثام، ويعود ذلك في معظمه إلى قلة العلماء والدعاة أو ندرتهم.

فيلتقي الجهل بالدين مع وساوس الشياطين، مع دعاة الفساد مع ضعف الإيمان ونوازع النفس الأمارة بالسوء والكسل، ليوجهوا سهامهم نحو حمل النَّاس على العزوف عن الدين والأحكام والتفريط فيها.

صور التفريط في الدين وأشكاله:

يتخذ التفريط في الدين صوراً كثيرة، وأشكالاً مختلفة، وهي في غالبها ممنوعة ومحرومة، ويؤاخذ عليها صاحبها، فمنها :

1 - التقصير في السُّنن والنوافل:

كأن يؤدي المسلم جميع الواجبات والفرائض، ويجتنب جميع المحرمات والمفاسد، لكنه يترك المندوبات والسنن المؤكدة والنوافل كلها أو بعضها، فهذا الشخص قصّر فيما تُرْفع به الدرجات والمكانة العليا عند رب العالمين، التي أرادها الله من

عباده المؤمنين في الحديث القدسي:

«وما تقرَّب إليَّ عَبْدي بأفضلَ مما افترضْتُه عليه، ومايزالُ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه»[1].

وهذا المقصر يعتبر من الناجحين في الدنيا، والناجين المفلحين إن شاء الله تعالى في الآخرة، إن ثابر على الفرائض، وصدقت نيته، وأداها بشكل صحيح وكامل، لما جاء في الحديث الصحيح عن الأعرابي الذي جاء يسأل رسول صلى الله عليه وسلم عن أركان الإسلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«خمس صلوات في اليوم والليلة...، وصيام رمضان... والزكاة، فقال الأعرابي: هل عليَّ غيرُها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، إلا أن تَطَوَّع، فأدبر الرجل، وهو يقول: والله، لاأزيدُ على هذا ولاأنقصُ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلح إنْ صدق».

---

(1) هذا جزء من حديث صحيح رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية قال :

«والذي أكرمك لاأتطوّع شيئاً، ولا أُنقصُ مما فرض عليّ شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح إنْ صدق، أو دخل الجنة إن صدق»[1]،

ولكن المقتصر على الفرائض يُقصِّر عن رتبة الأتقياء والصالحين، أو يقصِّر عن السعي نحو رتبة الكمال في الدنيا والآخرة، ثم يكون عُرْضة للهجوم مباشرة على الحصن الأول والقلب من قبل البواعث السابقة، دون أن يتخذ وقاية لنفسه، أو تحصينات أولية لفرائضه وأعماله، أو وسائل علاجِية ووقائية لقلبه، أو يضع الحواجز أمام أعدائه.

وهذا ما قصده العلامة الشاطبي بتحذيره، فقال: «كان في إبطال الأخف جرأة على ما هو آكَدُ منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخف كأنه حمى للآكد، والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فالمخلّ بما هو مكمل كالمخل بالمكمَّل من هذا الوجه، ومثال ذلك الصلاة، فإن لها مكملات، وهي هنا سوى

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والإمام مالك والدارمي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

الأركان والفرائض، ومعلوم أن المخل بها متطرق للإخلال بالفرائض والأركان، لأنّ الأخف طريق إلى الأثقل، ومما يدل على ذلك ما في الحديث من قوله عليه السلام:

«كالراتِع حول الحمى يُوشك أن يقعَ فيه»[1].

وفي الحديث :

«لعن الله السارق، يسرق البيضة فتُقطع يده، ويسرقُ الحبل فتقطع يده»[2].

وقول من قال: إني لأجعل بيني وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرمها، وهو أصل مقطوع به متفق عليه...، فالمجترئ على الأخف بالإخلال معرض للتجرؤ على ما سواه، فكذلك المتجرئ على الإخلال بها يتجرأ على الضروريات»[3].

---

(1) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما بلفظ «كالراعي يرعى حول الحمى...».

(2) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) الموافقات، للشاطبي 13/2 وما بعدها.

2 – التفريط بالواجبات والفرائض :

وهناك فئة عريضة من الناس أخطر من الأولى بكثير، وأشد تفريطاً بدين الله وشرعه، وأكثر تقصيراً في تطبيق الأحكام، وأوسع انحرافاً في السلوك، وهم الذين يتركون ما فرض الله تعالى، ويهملون أركان الإسلام كُلاًّ أو بعضاً، ويفرطون بالواجبات، كمن يصوم ولا يصلي، أو يصوم ويصلي ولا يزكي، أو يقوم بالثلاثة ويترك الحج وغيره، ويضمر هؤلاء في قلوبهم الإيمان، ويصرحون به، ويعلنون ولاءهم للدين والإسلام والأحكام، وأنهم مقصرون، وأن الإيمان يملأ قلوبهم، ويسألون الله تعالى أن يعينهم على الأداء الكامل، والالتزام التام، ويرجون من الله تعالى العفو والمغفرة، وإن تركوا جميع الفرائض والواجبات كرروا بألسنتهم طلب الهداية من الله تعالى، وأن يلهمهم الرشد والصواب، والرضا والتوفيق للالتزام.

وهذه الفئة – إن صدقت في إيمانها مع التفريط بأحكام الدين، وصدقت مع انفسها – فإنها تعتبر من العصاة المذنبين الذين يحتاجون إلى التوبة السريعة، والعودة الفورية إلى الله تعالى في الدنيا، وأنها تستحق العقاب على التقصير في الآخرة،

لارتكابها كبائر الإثم، وعظائم الذنوب، إن لم تتحقق توبتهم الصادقة قبل الموت.

وهذه الفئة أصبحت حصونها مهددة من الداخل، وحاصرها الشيطان وأعوانه وبواعث التفريط من كل جانب، ودخل الغزو الفكري إلى أعماقها، واحتل الشيطان جزءاً من كيانها، وعشش في زوايا القلوب، وتمركز في الجنبات، ويحتاج إلى قوة الإيمان، وصدق العزيمة، ومضاء التصميم، وإخلاص التوبة إلى إخراجه، والقضاء على آثاره الخطيرة التي سنراها فيما بعد.

3 - خلط الأعمال الصالحة بالأعمال السئية :

وهذا نوع من التقصير الخطير الاثم، وهو أشد من سابقه، وذلك بأن يقوم أصحابه بأداء الواجبات والفرائض، وفي نفس الوقت يرتكبون المحرمات، ويمرحون في الموبقات، ويمرغون في الاثام، كمن يصلي ويكذب، أويحجّ ويغش، أو يصوم ويأكل أموال الناس بالباطل، أو يدخل المسجد ويأكل

الربا، أو يسطو على أموال اليتامى ويغصب أرض الوقف وأملاكه، أو يشرب الخمر، أو يَحْرم المرأة من الميراث، أو يشهد الـزور....

وهؤلاء على خطر عظيم، لأن تقصيرهم يدل على ازدواج الشخصية، وأنهم لم يستفيدوا من طاعتهم وعبادتهم في الصلاة والصيام والحج وغيرها، وأن إيمانهم حبيس في زنزانة مغلقة، وأن أقوالهم لاتتجاوز حناجرهم، وأن أعمالهم الصالحة لاترتفع فوق رؤوسهم، وأنها مجرد صورة جوفاء ، فارغة المضمون والجوهر والمعنى، لأن من يقف بين يدي الله تعالى، ويأنس بجواره، ويذوق حلاوة الطاعة والإيمان، لايمكن أن يمارس الظلم والطغيان، ويستحل الغش والإيذاء، ويَغْشَ الحرام، ويجرأ على الزور والبهتان، ويقدم على المحرمات، وينتهك المقدسات، ويفعل مانهى الله عنه، وينطلق لسانه باللدغ والإيذاء والإساءة.

ويظهر أمثال هؤلاء في المجتمع، وقد سقطوا في حَوْمة الرذيلة، فيسيئون إلى أنفسهم وإلى غيرهم، ويشوهون صورة الدين والتدين، ويخلطون العمل الصالح بالعمل الفاسد، وأمرهم

يوم القيامة إلى الله والحساب والميزان، وهو مابيَّنه القرآن الكريم صراحة، فقال تعالى:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

{التوبة 102}

وتبقى العدالة الإلهية قائمة، ومتمثلة في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَه * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ .

{القارعة 6-11}

وقوله تعالى :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ .

{الزلزلة 7-8}

4 - تمزيق الدِّين :

ويتخذ التفريط في الدِّين صورة التمزيق للدين، كمن يؤمن بالله تعالى وبالرسول وبالإسلام وبالقرآن، ولكنه يأخذ بعض أحكامه، ويهمل بعضها الآخر، ويطبق بعض الإسلام، ويتخلى عن بعضه الآخر، ويختار من القرآن بعض آياته وأحكامه ومبادئه ونظرياته، ويُعرض عما سواه، ويسلخ من الدين مايشاء من الفروع بما يتفق مع الأهواء والميول والأذواق فيلتزم به، ويتاجر فيه، ويتباهي بتطبيقه، ويدير ظهره لما يشاء، ولايكتفي بذلك نظرياً، ولايقف عند هذا الحد، بل يلجأ إلى أديان أخرى، أوفلسفات فكرية، أوقوانين وضعية، أو عادات بالية، أو تقاليد موروثة، ليستورد منها ما يشاء، ويسدَّ فيها الثغرات التي شقها في الدين، ويرَقِّع بها الصورة التي شوَّهها بيده بدون تنسيق ولانسجام، ليصبح المنظر مُقْرِفاً، والثوبُ مُرَقَّعاً، والصورة مُخْزية، والهيكل غريباً عن أهله وعن غير أهله، لامع هؤلاء ولامع هـؤلاء، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولم يقتصر هذا الأمر على الأفراد والجماعات، بل امتد إلى الدول والحكومات التي قامت بنفس العمل السابق، وقصَّرت

في تطبيق دين الله وشرعه، فاحتفظت ببعض الأحكام الشرعية، وبعض جوانب الفقه كأحكام الأسرة وما يقرب منها، وفرضت القوانين الوضعية الأجنبية على المسلمين، وشرعت الأنظمة البشرية كالقانون الجنائي، والقانون التجاري، والقانون الدولي، والقانون المدني، وأنظمة الشركات والعمال والمصارف...، فضلَّت وأضلَّت، وأضاعت شخصيتها، وفقدت هيبتها، وتعسرت في طريقها، واضمحل كيانها، لتصبح تبعاً لهذا وذاك، واستسلمت لإرادة الأجنبي، والإستعمار الفكري والتشريعي، وفي ذات الوقت تحاول أن تطبق من الدِّين ما يروق لها، لتتاجر باسم الدِّين، وتظهر أمام السُّذج أنها تطبق الدين وتعمل به.

ولذلك نلاحظ التناقضات السلوكية على المستوى الفردي والجماعي، وصار من المألوف أن نرى من يحافظ على بعض التقاليد الموروثة باسم الدين، و العادات الشعبية، والمظاهر الرسمية، ومن يداوم على العبادات وفي نفس الوقت يستهزىء بسنة ثابته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يتنكر لبعض الأحكام الثابتة بالنص وإجماع المسلمين كتعدد الزوجات أو

الطلاق، أو مكانة المرأة في الحقوق والواجبات، أو أحكام الحدود والجنايات، أو يستغرب تحريم الخمر والربا والاختلاط، وغير ذلك مما يوحيه إليه الهوى والشيطان، ليتخذ من عقله ورأيه حكماً على قبول بعض جوانب الشرع أو رفضه، أو ليحكم على الشرع بما يوحيه إليه غيره من الشرق والغرب.

وهذا ما كشفه القرآن الكريم سلفاً، وحذَّر منه، وبين نتائجه الوخيمة، فقال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

(الفرقان 43 - 44)

وقال تعالى :

﴿ ...أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾.

(محمد 16)

وقال تعالى :

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾

(محمد 14)

وقال تعالى :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ .

(المؤمنون 71)

قال العلامة الشاطبي:

«وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة، فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق، وعدّه قسيماً له» إلى أن قال : «فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى، والدخول تحت التعبد للمولى»[1].

---

(١) الموافقات، له 2 ص 120 - 121 .

وخلاصة ذلك أنه يجب الإيمان والالتزام والتطبيق بكل ماجاء به الدين الصحيح، دون أن يتخذ الدين للمتاجرة به، وجعله صنعة وحرفة، ليطبق بعضه حسب الأهواء والأذواق، والحاجات والمصالح الشخصية، ويمهل بعضه الآخر إذا تعارض مع الهوى والمصالح، ليتم نسيانه، وإن أغلب ماتتقزز منه النفس اليوم يأتي من هذا الجانب للتطبيق الجزئي للإسلام، وتمزيق الدين، سواء من ناحية الفرد أو المجتمع أو الدولة، لأن هذا التطبيق يعطي صورة جانبية مشوهة للإسلام، لايقبلها العقل، ولايقرها الدين، ويبرأ الله تعالى منها ومن أصحابها، ويصيح الدعاة المخلصون، والعلماء العاملون، من ويلها وشرورها، ومع ذلك تقدّم أمام المسلمين، وغير المسلمين، وكأنها الصورة السليمة والحقيقية للإسلام، مما ينفر منه الكثير، وتكون سُبَّة على الإسلام، ويتحامل عليها الأعداء، ويكيد لها المستشرقون والمستغربون وأعوانهم، ويشهّرون بها، ثم يثيرون الغبار والعواصف حولها، ويصدّرون هذه البضاعة إلى البلاد الإسلامية، ليرفعوا هذه الصورة الممقوته المبتورة أمام الناس، ليصدّوهم عن الدين الحق، والإسلام الصحيح.

5 - الإيمان بلا عمل:

ويصل التفريط في الدين قمته عند قوم ينفثُ الشيطان في رُوعهم، ويلقنهم أعداء الله: أن الأعمال وتطبيق الأحكام أمور ظاهرية، وأشكال خارجية، وأن العبرة بالقلب، والأصل بالإيمان، ولاقيمة للأعمال والأشكال مع نقاء الجوهر، وصفاء القلب، وحبه للخير، والنفع العام للناس جميعاً، وعدم إضمار الشر والفساد والأذى للآخرين، وهذا في زعمهم قمة الإيمان والإسلام والتدين، ولايعدم الشيطان وأعوانه أن يأتوا بالحجج والأدلة على هذه المزاعم والافتراءات على الله والدين، وخاصة أنهم يرفعون الصورة المشوهة عن تمزيق الدين، وتطبيقه الجزئي، وعن خلط الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، وأن العبادات التي يمارسها بعض مسلمي اليوم لاتردعهم عن الإيذاء والضرر، والفساد والفحشاء، والسلوك الشائن، ولايدري هؤلاء أن دعواهم ليست من الدين والإسلام في شيء، وأنهم يقفون على شفا جُرُف هار، ويقيمون على حدود الكفر وأبواب الضلال، وأن حججهم مردودة عليهم، وإن القرآن الكريم فنَّد هذه المزاعم في آيات كثيرة، وأنَّه ربط الإيمان بالعمل في معظم آيات القرآن الكريم، وأن الإنسان

محاسب على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ .

{العنكبوت 11}

وقوله تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...﴾ .

{الملك 2}

وقوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الانسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،وَتَوَاصَوا بِالْحَقِ وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ﴾.

{العصر 1 - 3}

وأن مجرد الايمان إذا كان ينفع صاحبه في سريرته وباطنه ، وفي آخرته ، فان العبرة في هذه الحياة ، ومن وجهة النظر الدينية ، هي للأعمال ، فلنا الظاهر ، والله يتولى السرائر، وكل انسان بما يعمل ويقدم ، ويعطي وينتج ، وكل انسان بحسب عمله في هذه الحياة ، وأن أقوالهم السابقة لم يرِد بها دين ، ولايقبلها عاقل ، ولم يقل بها نبي مصطفى ، وتتعارض مع سيرة الأنبياء والمرسلين ، وإنْ كان العمل الصالح لابدٌ له من إيمان صحيح ، ونية صادقة .

وقد طلب الشرع الحكيم الالتزام بأحكام الدين عقيدة وشريعة وسلوكاً، ليتم تطبيقه الفعلي في الحياة ، وندّد القرآن الكريم بمن يعرف حكم الله تعالى ولايطبقه ، وبمن يدعو الناس إلى دين الله تعالى، وهو لايلتزم به، ويعفي نفسه من ذلك ، فقال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَالاَ تَفْعَلُونَ﴾ .

{الصف 2 – 3}

وقال تعالى :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾.

{البقرة 44}

وبيّن تعالى منهج الأنبياء، والدعاة المخلصين ، والمؤمنين الصادقين ، فقال تعالى:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلِى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

{يوسف 108}

وقال تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

{الانعام 153}

وقال تعالى على لسان شعيب :

﴿ ... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ ...﴾.

(هود 88)

وبيِّن رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة من يدعو إلى عمل، ثم يخالفه ، وكيف يكون مصيره وجزاؤه يوم القيامة، فقال عليه الصلاة والسلام :

«يُؤْتى بالرَّجُل يومَ القيامة، فيُلقى في النَّار، فتَنْدَلِق أقْتَابُ بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرَّحا، فيجتمع إليه أهل النَّار، فيقولون: يافلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عند المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر، وآتيه»[1].

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وقوله: «تندلق» بالدال المهملة، ومعناه تخرج، والاقتاب: الأمعاء، جمع قِتْب.

6 - التواكل :

ومن صور التفريط في الدين، والتقصير بأحكامه، مايصدر عن بعض النَّاس من الاتكال والتواكل باسم الدين، وهو صورة مشوَّهة عن الدين، ومشوِّهة للدين، ويمتزج بها معظم بواعث التفريط السابقة من الكسل، واتباع الشهوات، ووساوس الشيطان، وضعف الايمان، وتلبيس دعاة الشر والفساد، ويختلط فيها فساد العقيدة والاعتقاد مع انحراف السلوك والتقصير في العمل، ويثور التشابه الغريب بين التواكل والتوكل، مع البون الشاسع بينهما، ولذلك نفرد هذا الموضوع بشيء من التفصيل لبيان الحق من الباطل وتمييز الصحيح من الفاسد ، واليقين من الباطل .

أ- التوكل والتواكل:

هما كلمتان متماثلتان في النطق، متشابهتان في الفظ، قريبتان في الكتابة، لكنهما متفاوتتان في المعنى، متنافرتان في الدلالة، متعاديتان في القصد، متناقضتان في السلوك مختلفتان في العقل والشرع، والمنطق والعلم، متباينتان في الآثار والنتائج.

التوكل صفة محمودة، والتواصل صفة مذمومة، التوكل خلق رفيع، والتواكل سلوك وضيع، التوكل من أبواب الإيمان الصحيح، والتواكل من أعمال الشيطان، التوكل يدعو إليه الإسلام، ويحثّ عليه، ويأمر به القرآن الكريم، والتواكل يحاربُه الإسلام، وينهى عنه الدين، ويحذر من ارتياده، التوكل من مبادئ الشرع، والتواكل من شعار الكسالى والغافلين، التوكل من سمات الأنبياء والصالحين، والمرسلين وصالح المؤمنين، والتواكل وصف لجند إبليس اللعين، التوكل دواء وشفاء نفسي وروحي واجتماعي، والتواكل مرض خفي، وإعياء جسدي، وارتخاء سلوكي، التوكل وسيلة للرقي، والتقدم، وبناء الحياة والحضارة،والتواكل سبب للتخلف والجمود، وعامل للانحطاط والاهمال والجمود.

ب - أسباب الخلط بين التوكل والتواكل:

ومع هذا الوضوح في معنى كل من التوكل والتواكل، ومع ظهور التباين بينهما، فقد يشتبه أمرهما عند كثير من الناس، ويختلط التمييز بينهما، وخاصة عند غياب الوعي الإسلامي، وبُعد الناس عن ربّهم وأحكام دينهم، ثم ينسب

المفهوم الخاطئ والمشوه والمذموم - زوراً وبهتاناً - إلى الإسلام والمسلمين وذلك لعدة أسباب:

- منها : الفهم الخاطئ لأحكام الإسلام، لقصور الفهم، وقلة العلم الكافي، وعدم التفريق بين قواعد الإيمان وأحكام المعاملات، فالتوكل ثمرة من ثمار الإيمان، يتأثر به اعتقاداً ويقيناً، وقوة وضعفاً، ينمو مع زيادة الإيمان، ويخبو نوره مع ضعف الإيمان، ويتفق التوكل مع الإيمان في جني الثمار المشتركة، وتحقيق اليقين والطمأنينة في الفرد والجماعة، أما التواكل فهو مرض خبيث يدبّ في السلوك فيشل حركته، ويفسد العمل، ويقطع السير، ويصيب الأحكام الشرعية العملية بالجمود، وشتان بين قواعد الايمان، ومبادئ الأحكام وأنماط السلوك.

- ومنها : الجهل بالدين، مع محاولة الجهال تفسيره بغباوة وعدم معرفة، مع الخلط بين واقع المسلمين السيء وحقائق الاسلام الأصيلة، والحديث في الدِّين بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير، وهذا ذنب عظيم وإضلال وتضليل، ولكن هذا الذنب يصيب علماء المسلمين لتقصيرهم فيما يجب عليهم من التبليغ والدعوة، وإجلاء تعاليم الإسلام، وتوضيح الأحكام، لتكون ناصعة

مشرقة، تجذب القلوب، وتستدعي الانتباه، وتجلب الأنظار، وتفتح العيون، وتتحقق الهداية والرشاد.

- **ومنها** : التشويش والدس والتضليل عن عمدٍ من أعداء الدين والإسلام، لخلط الأمور على المسلمين، وتشويه الحقائق عليهم، وإلحاق كل منقصة بهم وبدينهم، ليوقعوا الشك في نفوسهم، والطعن في دينهم والتردد في حياتهم، والكسل في أعمالهم، والجمود في سلوكهم، ويتركوهم فريسة لأعوانهم في التبشير والاستعمار والاستغلال.

- **ومنها** : تجزئة الدين وتمزيق أحكامه من قبل أتباعه وأعدائه على حد سواء، وذلك بفصل العقيدة عن الشريعة، وفصل الإيمان عن العمل، والتمسك بالعبادة مع التخلي عن المعاملات، وسائر جوانب السلوك والحياة، ومن هنا يحرص هؤلاء على التحلي بالإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وعبادته، وتنزيهه وتقديسه، والاستعانة به والاستغاثة، ودعائه والثقة به، ويحفظون أوامره في طلب التوكل عليه، لكنهم يغمضون أعينهم عن شريعته في الحياة، وتعاليم الإسلام في السلوك، ونظام الدّين في التعامل، ويغفلون أو يتغافلون عن الأمر الإلهي بوجوب السعي والكسب، والحث على العمل، والزجر عن الخمول

والكسل، ويتناسون السيرة النبوية العَمَلية، وحياة السلف الصالح الذين اكتنزوا الإيمان في قلوبهم، وحملوا مشعل العلم والحضارة والبناء والعمران في العالم أجمع، وخلفوا لنا تراثاً زاخراً، وحضارة زاهية، لأنهم وصلوا كلال الليلِ بالصلاة والعبادة والقيام والخوف والمراقبة والتوكل، بكلال النهار في السعي والجدّ، والعلم والتعلم، والكسب والعطاء، والصناعة والتجارة والزراعة، وسياسة الدِّين والدنيا.

د - الحث على التوكل، والنهي عن التواكل:

إن الله سبحانه وتعالى أمر بالتوكل عليه، كما أمر أيضاً بالأخذ بالأسباب، والسير على السنن الكونية التي أقام الكون، وفطره عليها، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿... وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ...﴾.

(النساء 81)

ويقول تعالى في أول الآية: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ويقول تعالى، آمراً نبيَّه بالتوكل على اللَّه تعالى، دون الكافرين

والمنافقين: «وَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ» لكن الله تعالى يبدأ ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ وكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾.

{الاحزاب 48}

ويقرر ربنا عز وجل المبدأ الإلهي في الحرب والقتال، فيقول:

﴿ ... وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

{آل عمران 126}

فالنصر من الله تعالى حصراً ونصاً، وأنه يجب التوكل عليه، لكن الله تعالى يقول:

﴿ ... إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

{محمد 7}

ويقول أيضاً:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ... ﴾.

{الانفال 60}

فالإعدادُ والاستعداد، والتدريب والقوة سبب من أسباب النصر الذي يمنحه ربّ العالمين لمن يشاء، ولكن حاشا أن يهبه للكسالى والخاملين والمتسكعين والقاعدين، بل إنّ العدالة الإلهية رتّبت المسببات على الأسباب، ولو قام بها الكفار والأعداء، والجهل بذلك ينتج عنه الأسئلة التافهة اليوم عن تقدم الغرب وتخلف الشرق والمسلمين.

ويين القرآن الكريم المنهج الربّاني في هذا السُّنَن لجميع الأنبياء السابقين، فقال عز وجل حكاية عنهم :

﴿ ... وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَالَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

(إبراهيم 11 - 12)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربّه، ويعلم المسلمين ذلك، فيقول :

«اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وَفَوَّضت أمري إليك»[1].

ثم يقول لأصحابه وللمؤمنين :

«اعملوا فكلٌّ ميَّسَر لما خُلِق له»[2].

والرسول عليه الصلاة والسلام هو المثل الأعلَى في التوكل على الله تعالى، والثقة به، وتفويض الأمر اليه، وفي نفس الوقت يستعد لكل الأمور، ويأخذ الأهبة، ويُعد العُدة، ويبذل الطاقة في التدبير والتخطيط، ولايدَّخر وُسعاً في الترصد والاحتياط، والإعدادوالاستعداد.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتداوى، ويصف الدواء، ويقول عليه الصلاة والسلام:

«تَدَاوْوا عبادَ الله، فانَّ الله لم يَضَع داءً إلا وَضع له دواءً، غير داءٍ واحد : الهرم»[3].

(1) هذا جزء من حديث رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب إذا بات طاهراً، وفي كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب مايقول عند النوم وأخذ المضجع عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(2) هذا جزء من حديث رواه البخاري، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي.

(3) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان والحاكم عن أسماء بنت شريك مرفوعاً، وروي مثله عن أبي هريرة، وعند البخاري عن عطاء مرفوعاً «ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء».

وبعد هذا الوضوح في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والسيرة العملية، ومثلها كثير وكثير، يظهر الانفصال الكامل عند بعض الناس بين الإيمان والعمل، وبين العقيدة والشريعة، وبين الإيمان وشؤون الحياة، ليأخذوا بالأول ويتركوا الثاني، ويتمسكوا بالشرط الأول ويهملوا الثاني، ثم يقعون بالتواكل الممقوت، والانحراف البغيض، والكسل المشين، والتقصير المخزي، والأنكى من كل ذلك أن يتم ذلك باسم الدين والتدين .

د- حقيقة التوكل والتواكل:

تظهر حقيقة التوكل والتواكل مع تمييز الفرق بينهما، من المعنى اللغوي فالتوكل من وَكَلْت الأمر إليه وكلاً، من باب وعد، ووكولاً، فوّضتُ اليه، واكتفيت به، وتوكل على الله اعتمد عليه ووثق به، وتواكل القوم تواكلاً اتّكل بعضُهم على بعض[1].

---

(1) المصباح المنير 2/ 924 مادة وكل .

وحقيقة التوكل - كباب من أبواب الإيمان، وثمرة من ثماره - هي أن يفوِّض المؤمن جميع أموره لله تعالى، وأن يُسندها إليه جل شأنه، وأن يَكل نتائج أعماله وتدبيره إلى الله، لأنه مَلَك الملوك، المدبّر لهذا الكون، المتصرف فيه، الفعّال لمايريد، الخالق البارئ المصور، فالمؤمن يعتمد في كل شيء على الله، ويُسْنِد كل فعل حقيقي إلى الله، ويضيف كل قدرة فعالة له، ويوقن أن الأسباب المؤثرة بيد الله، ويعترف بأن تحقيق النتائج من تقدير الله تعالى، وفضله وعونه وتيسيره وحكمته، وأن ربط النتائج بالاسباب بدون حائل ولامانع لها من أمر الله وتصرفه.

والمتوكل على الله تعالى - حقيقة - هو الذي يقوم بواجباته، ويتخذ الأسباب، ويؤدي ماأنيط به، وينفذ أوامر الله، ويجتنب نواهيه، ويطبق شرعه ويلتزم بدينه، وفي ذات الوقت يعتمد على الله تعالى في كل فعل وحركة وتصرف، يستمد منه العون، ويأمل منه الخير، ويطمع في أبواب رحمته، وخزائن رزقه، وموازين عدله، وواسع فضله.

قال الإمام أحمد: التوكل: عمل القلب، يعني ليس بقول، ولاعمل جارحة، ولاهو من باب العلوم والإدراكات، ومن الناس

من يجعله من باب المعارف، فيقول : هو علم القلب بكفاية العبد من الله ، ومنهم من يفسره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه، ويعقّب الفيروزابادي على هذه الأقوال فيقول:

«وإنما يتقوى العبد على التوكل إذا علم أنَّ الحق سبحانه يعلم ويرى ماهو فيه ...».

وقال سهل بن عبدالله التُسْتري (283هـ):

«من طعن في الحركة فقد طعن في السُنَّة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكّلُ حال النبي صلى الله عليه وسلم، والكسْبُ سُنَّتُه، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته»[1].

أما حقيقة التواكل فهو الاعتماد على المخلوقين بالتخلي عن الأسباب، وانتظار النتائج منهم، مع الانقطاع عن السعي، ظناً أن الله تكفل برزق المخوقات، وأنه المتصرف بشؤون الكون، يرزق من يشاء، ويحرم من يشاء، ويعطي من يريد، ويحجب من

---

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 316/2 ومابعدها، وانظر: الرسالة القشيرية ص 76.

يريد، وأن الله تعالى يرزق الطير والبهائم والحشرات، فلايبخل على الانسان بالرزق، وقد خلقه وفضله على غيره، وكرّمه وسخر لهمافي السموات والارض، ويقولون: إنّ الإنسان لو اتكل على الله لرزقه كما يرزق الطير، كما جاء في الحديث الشريف، ويقولون إن ذلك من باب حسن الظن بالله تعالى.

ولايقف أدعياء التواكل عند هذا الحد، بل يُغفلون النصوص الشرعية الصريحة التي تقف في وجههم، وتدعو للسعي والعمل والكسب، ويتمسَّفُون في تأويلها، ويحرفونها عن مواضعها، ويفسرونها على غير ما فهمها الصحابة رضوان الله عليهم، والسلف الصالح، والعلماء العاملون، ويعرضونها للجدل والمناقشات بأسلوب أعوج، ومنطق عقيم، ومنهج أبتر، حتى يصلوا إلى القعود عن العمل، والجمود في الفكر، والتعطيل في العقل، والسلبية في الحياة والأعمال، والتصرفات والسلوك، وكأنهم جلمود صخر حطَّه السَّيْل من عَل، ثم ينسبون ذلك للدين، أو يلحقونه بالدين، والدين منهم براء، فهم متواكلون، لامتوكلون .

والحديث الذي يتوكؤن عليه هو مارواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول :

«لو أنّكُم تَتَوكّلُون على اللّهِ حق توكّله لرزقكم كما يُرزق الطّيْر، تَغْدو خِماصاً، وتروحُ بطاناً».

{رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[1]}.

وقال النووي:

«معناه: تذهب أول النهار خماصاً، أي ضامِرَة البطون من الجوع و وترجع آخر النهار بطاناً أي ممتلئة البطون».

فالحديث يفيد الحث على التوكل على الله تعالى بصدق ويقين في كل شأن من الشؤون، مع الأخذ بالأسباب، والسعي في طلب الرزق من صدق التوكل على الله تعالى كالطير تغدو، ولاتقعد عن السعي[2].

---

(1) هذا الحديث رواه الترمذي، وأخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وابن ماجه.

(2) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين 1 / 113 ، 114.

وقال المباركفوري: «فالكسب ليس برازق، بل الرازق هو الله تعالى، فأشار بذلك الى أن التوكل ليس التبطل والتعطل، بل لابدَّ فيه من التوصل بنوع من السبب، لأن الطير تُرزْق بالسعي والطلب، ولهذا قال أحمد: ليس في الحديث مايدل على ترك الكسب، بل فيه مايدل على طلب الرزق، وانما أراد لو توكّلوا على الله في ذهابهم، ومجيئهم، وتصرفهم، وعلموا أن الخير بيده لم ينصرفوا إلا غانمين سالمين كالطير، ولكن اعتمدوا على قوتهم وكسبهم، وذلك لاينافي التوكل، انتهى، وقال الشيخ أبو حامد: وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، أو كلحم على وضم، وهذا ظن الجهّال ، فان ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظور من محظورات الدين، بل نكشف عن الحق فيه فنقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله الى مقاصده»[1].

---

(1) تحفة الاحوذي 7 / 9.

فأين ادعاء التواكل من الحديث؟ وهذا ما فهمه المحققون وشراح الحديث وعلماء الإسلام، وهو ما أدركه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة وفكرة، وشريعة ونظاماً، وسلوكا وتطبيقاً، وعندما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رجلاً في المسجد يتنسك في غير وقت النسك، ويتعبد في غير وقت العبادة، ويعتكف في المسجد هرباً من العمل والسعي والكسب ضربه بالدُّرة على رأسه، ودفعه الى طلب الرزق، وأعلمه أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة).

ولما أراد الله تعالى أن ينعم على مريم البتول الطاهرة، التي اصطفاها، وجعل منها آية على قدرة الله وعظمته بخلق السيد المسيح منها، وبعد الولادة مباشرة قال الله تعالى لها:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ...﴾.

(مريم 25 - 26)

فأمرها بالحركة والسعي والتوكل على الله، ولم يدعها للتواكل بدون عمل، وهذا ينقلنا إلى الفقرة التالية.

هـ - السعي للرزق :

وينسى هؤلاء المتواكلون أن الله تعالى أمر الإنسان بالسعي، فقال عز وجل:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

(الملك 15)

وقال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ... ﴾.

(الجمعة 10)

وقال في نهاية الآية التالية مباشرة :

﴿... وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

(الجمعة 11)

فبين الله تعالى حقه في الطاعة والعبادة في أداء صلاة الجمعة، ثم أمر المؤمنين المصلين بالسعي والعمل والانتشار في الأرض ابتغاء فضل الله ورزقه، ثم قرر المبدأ الإلهي في التوكل، وأن الله هو الرزاق، وهو خير الرازقين.

ويغفل المتواكلون عن تتمة حديث الطير، ولذلك ذكرناه كاملاً، فالطير لا ترزق مع الكسل والخمول، والنوم والقعود، وإنما تغدو جياعاً أول النهار، ساعية ناصبة، عاملة باحثة، جادة نشيطة، تفتش عما يحفظ حياتها، وحياة أولادها، فلا يردُّها الله تعالى خائبة، فتروح وترجع آخر النهار ممتلئة البطون، حاملة الطعام والرزق لصغارها، فالحديث يوحي بأن الأسباب لا بدَّ من سلوكها، ليصل المرء الى الغاية التي يبغيها، ويؤمن الوسائل التي تتوقف عليها حياته، كما يسلك الطير طريقه ليؤمن قوته وقوت عياله.

وقد لقي أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن، فقال ما أنتم؟ قالوا: متوكِّلون، قال: «كذبتم، أنتم مُتاكِّلون، إنما المتوكِّل رجل ألقى حبَّه في التراب وتوكَّل على رب الأرباب»، وحاول قوم الانقطاع عن العمل، وادَّعوا أن العمل ينافي التوكل على الله تعالى، فمنعهم عمر رضي الله عنه، وقال لهم:

«لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، وهو يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة»[1].

---

(1) سيرة عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص 92.

كما كشف رسول صلى الله عليه وسلم وساوس هؤلاء القوم، الذين يدّعون التوكل وحسن الظن بالله، ولا يعملون، وبين أن هذا ينافي حسن الظن، وانه يوقع في الانحراف، فقال عليه الصلاة والسلام:

«ليسَ الإيمانُ بالتمني، ولكنْ ما وَقَر في القلب، وصدَّقه العمل، وإنَّ قوماً غرتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسنُ الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»[1].

وهكذا تظهر حقيقة التوكل والتواكل، وأن حقيقة التوكل جزء من الإيمان، وأنها اليقين في نفس المؤمن: أنه لا فاعل حقاً إلا الله، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع هو من الله تعالى، مع السعي في الطلب على الوجه المشروع مقروناً بالاعتماد على الله تعالى، وإظهار العجز له، ويردد المؤمن شعار

---

(1) أول الحديث رواه ابن النجار، والديلمي في مسند الفردوس عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وسنده ضعيف، وروي معناه بسند جيد عن الحسن من قوله، وهو الصحيح، وروى أبو داود وأحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حُسن الظن من حسن العبادة».

الإسلام، في تسبيحة الوجود، فيقول: «لاحَوْلَ ولاقوةَ إلا باللّه» متبرئاً من حوله وقوته، ومعترفاً بحول الله وقوته، ملتزماً بما جاء في الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم :

«ألا أدلُّك على كنزٍ من كنوز الجنة ؟ فقلتُ: بلى يا رسولَ الله، قال: قل: لا حولَ ولا قوةَ الا بالله»[1].

ومن هنا قال الفيروزابادي رحمه الله تعالى :

«ثم اعلم أن التوكل نصف الدِّين، والنصف الثاني الإنابة، فإنَّ الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلة التوكل أوسع المنازل: لايزال معموراً بالنازلين لسعة متعلَّق التوكل، وكثرة حوائج العاملين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين»[2].

---

(1) هذا جزء من حديث رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ومسلم، وروى مثله الترمذي 41/10.

(2) بصائر ذوي التمييز 315/2.

و- التوكل والعمل :

وإن الحدَّ الفاصل للكلام عن التوكل والتواكل، والتفريق بينهما، ووضع النقاط على الحروف، وقطع الجدل والشغب فيهما، للتمييز بين الحق والباطل، والغث والسمين، وتحديد موقف المسلم والمؤمن منهما هو - في بيان موقف الإسلام من العمل، سواء كان العمل في مجال العقيدة والهدى والإيمان واثر ذلك في الحياة، أم في مجال الطاعة والعبادة وعلاقتها بالسلوك، أم في شؤون العمل وكسب الرزق وطلب العلم وتأمين القوت أم في إعمار الأرض وبناء المجتمع، وقيام الدولة، وحماية الأمة، ومشروعية الجهاد.

فإنْ مَنعَ الإسلام العمل وحرمه، وشجب السعي وضيقه، كان التواكل مبدأه ومنهجه، وإن كان غير ذلك فيكون قد أوجب العمل والسعي، وفرض الجد والنشاط في مختلف جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والدولية، بدءاً من لقمة العيش والغذاء والدواء والكساء للإنسان الصحيح والقوي، وانتهاء بتوفير الأمن والحماية للدولة والوطن والأعراض والأموال، مع الاعتماد على الله في كل ذلك، والاستعانة به، وتفويض الأمر اليه - وكان

التوكل مذهبه وعقيدته ومنطلقه، والسعي والعمل منهجه، وكان التوكل مبدأ ايجابياً، لا سلبياً، ولا انعزالياً، ولا انكماشاً عن الحياة.

والإسلام حضّ على العمل ودعا اليه في محكم التنزيل، بكثير من الآيات الكريمة، منها ما سبق ذكره، ومنها قوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(التوبة 105)

فالآية الكريمة تدعو الى العمل بالنص الصريح المحكم بصيغة الأمر، ثم تعقب على ذلك بأن الله يراقب هذا العمل، ويراه، وأنه سيحاسب الناس عليه يوم القيامة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لقوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾.

(الزلزلة 7-8)

وإن منزلة الإنسان عند الله في الدنيا والآخرة بقدر عمله، قال تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾.

(الاحقاف 19)

وأن الجزاء في الآخرة مرتبط - بعد الاعتقاد والإيمان - بالعمل، قال تعالى :

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * ... * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

(السجدة 17، 19)

وقال تعالى :

﴿ ... وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

(الاعراف 43)

ويحاسب رب العالمين، وأحكم الحاكمين، الكفار يوم القيامة على نفس المبدأ، جزاء أعمالهم، ولا يظلم ربُّك احداً، قال تعالى :

﴿ ... وَذُوقُواْ عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

{السجدة 14}

ولذلك دعا الإسلام ايضاً الى إحسان العمل واتقانه، وإن الابتلاء في الدنيا والاختبار لمعرفة الأحسن عملاً، قال تعالى في آيات كثيرة :

﴿ ... لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً... ﴾.

{هود 7 ، الملك 2}

وورد مثل ذلك في السنة النبوية : القولية والفعلية والتقريرية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«ما أكل أحد طعاماً قطُّ، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[1].

---

(1) رواه البخاري عن المقداد رضي الله عنه مرفوعاً، (صحيح البخاري 730/2).

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الكسب؟ فقال :

« بيع مبرور، وعمل الرجل بيده»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لأن يأخذَ أحدُكم حَبْلَه ، ثم يأتي الى الجبلِ، فيأتي بحزمة من حَطَب على ظهره، فيبيعَها، فيكفَّ اللّهُ بها وجْهَه، خيرٌ مِنْ أن يسألَ الناسَ، أعْطَوْه أو منعوه »[2].

وهذا ما طبقه الرسول الكريم على نفسه، وسلكه الصحابة الأخيار، والمؤمنون بعدهم، تطبيقاً لمبادىء الإسلام، وفهماً لمقاصد الدين، والتزاماً بطاعة الله تعالى، وطمعاً في مرضاته، ووقوفًا عند أوامره ونواهيه، مما يظهر بشكل جازم أن التوكل

---

(1) رواه الإمام أحمد والبزار والطبراني في الكبير عن أبي بُرْدة رضي الله عنه .

(2) رواه البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه مرفوعاً، (صحيح البخاري 2/535، 730)، ورواه البخاري ومسلم بلفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. (نزهة المتقين 1/470).

على الله تعالى لا ينافي العمل والكسب واتخاذ الأسباب، وأن التوكل لا يعني السلبية والإهمال وترك الأعمال، وأن الله تعالى قرن التوكل عليه مع العمل الصالح الذي يوصل الى رضاه في العبادة والسلوك والهداية والتجرد عن الذنوب والآثام.

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أَعقِلُها وأتوكَّل، أو أُطلِقُها وأتوكَّل؟ فقال :

«اعقلها وتوكَّل»[1]. [يعني الناقة].

وهذا الحديث جمع بين العمل واتخاذ الأسباب مع التوكل على الله تعالى.

ز- حكم التوكل والتواكل:

والكلام السابق يوصلنا الى تلخيص الحكم الشرعي والتكليفي العملي لكل من التوكل والتواكل، فنرى أن التوكل مرتبط بالإيمان، ومأمور به شرعاً، وأنه يسير مع الجد والنشاط

---

(1) هذا الحديث رواه الترمذي والبيهقي وأبُو نُعَيْم وابن حبان. (كشف الخفا 1 / 161).

والكسب والعمل، وأن التوكل بهذا المعنى الشرعي، وبدلالته الصحيحية: فرض وواجب على كل مسلم، لأنه جزء من الإيمان والعقيدة، وجاء هذا الأمر في آيات كثيرة، وفي عدة سور، وبيَّن تعالى أن التوكل عليه ذخيرة لصاحبه، وكافية له عن كل شيء، فقال تعالى :

﴿ ... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... ﴾.

{الطلاق 3}

ووصف الله المؤمنين مدحاً بالتوكل عليه، فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

{الأنفال 2}

وأن الله تعالى يحبّ المتوكلين عليه، فقال تعالى :

﴿ ... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

{آل عمران 159}

وجاء على لسان الأنبياء والمرسلين التوكل على الله تعالى في دعوتهم وأعمالهم، فجاء على لسان يعقوب عليه السلام :

﴿ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

[يوسف 67]

وجاء على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

[التوبة 129]

وثبت ذلك بأحاديث كثيرة سبق ذكرها، وهو الوارد في سلوك الأنبياء والرسل، وهو المأثور عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في نماذج مشرقة في الإيمان والتطبيق العملي في مختلف جوانب الحياة والسلوك، وقد قصَّ القرآن الكريم علينا أروع الأمثلة في الإيمان بالله، والتوكل عليه، فهماً وتطبيقاً والتزاماً وتنفيذاً، منها قصة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه في غزوة أحد، عندما اشتد الهول، ولم يوهن من

عزيمتهم وسوسة المخذّلين وقولهم: إن خصومكم وأعداءكم قد جمعوا لكم واعدُّوا العدة للقضاء عليكم، فاخشوهم، فازدادوا يقيناً وإيماناً، وشجاعة وإقداماً، متوكلين على الله تعالى :

﴿ ... وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ .

{آل عمران 173}

وكان عاقبتهم الفوز والنصر، قال تعالى :

﴿فَانْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٌ﴾ .

{آل عمران 174}

وأما حكم التواكل فحرام في الشرع، وأنه ليس من الشرع اصلاً، وهو مخالف للنصوص الصريحة في القرآن والسنة وإجماع المسلمين وسيرة المؤمنين والصالحين، والتواكل سوء ظن بالله تعالى وبشرعه وبدينه، وهو ظن الجهال بأحكام الله ونواميسه في الكون، الذين يَفْتَرون على الله ما لا يليق، ويشوهون شرعه، ويفترضون بالكون الفوضى وسوء التدبير، وعدم العدالة الإلهية، ثم يفترضون خوارق العادات في شؤون الحياة في غير محلها، ومن غير أهلها، ومع عدم توفر شروطها، ويتمنون على الله الأماني، والأدلة على وجوب العمل، والدعوة

إلى السعي، والنهي عن الكسل والخمول، والمماطلة والتسويف، مع ممارسة النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الأسباب الظاهرة، تشجب أقوالهم، وتدحض حججهم، وتبطل افتراءاتهم وتكشف نواياهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«الكيِّسُ منْ دَانَ نَفْسَه، وعمل لما بعدَ الموت، والأحْمَق (أو العاجز) من أتْبَعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على اللّه الأماني»[1].

كما شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق التوكل الصحيح بما يرد شبهة التواكل بوصيته لابن عباس رضي الله عنهما قال : «كنتُ خلفَ النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: يا غلامُ إني أعلمُكَ كلماتٍ:

«احفظْ اللّه يحفظْك، احفظْ اللّه تَجده تُجَاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللّهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللّه، واعلم أنَّ الأمةَ لو اجتمعت على أنْ ينفعُوكَ بشيءٍ لم ينفعُوكَ إلا بشيءٍ قد كتبَه اللّهُ لك، وإنْ اجتمعُوا على أن يَضُرُّوك بشيءٍ لَمْ يضُرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّهُ عليك، جَفَّتِ الأقلامُ، ورُفعت الصحفُ».

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

وفي رواية أخرى :

«احفظْ الله تجدْه أمامكَ، تعرف إلى اللّه في الرخاء يَعْرفك في الشّدَّة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبَك، وما أصابك لم يكن ليخطْئكَ، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرَجَ مع الكربَ، وأن مع العسر يسراً»[1].

وبعد ذلك نخلص الى بيان نتائج وثمار التوكل، وأنه يمنح صاحبه قوة معنوية فعالة، على صعيد الفرد والمجتمع، وأن التوكل دواء لأمراض النفس، فيمنحها الطمأنينة والسكينة والأمن والرضا، ويدفع عنها الأوهام والوساوس، والقلق والاضطراب، وأن التوكل يدل على صدق الإيمان، ويفتح لصاحبه باب الثواب والطاعة والأجر العميم، وأن التوكل لا يعني إلقاء النفس في المهالك، وإهمال الأسباب المنتجة، وتجنب المضار.

كما نخلص الي أن التواكل·صورة مشوهة وممقوتة من صور التفريط في الدِّين ، والتقصير في الأحكام و والعبث في الشرع، والشذوذ في السلوك.

---

(1) الرواية الأولى من الحديث رواها الترمذي في أبواب صفة القيامة، والرواية الثانية رواها الإمام أحمد.

المبحث الرابع

نتائج التفريط وأخطاره

إن نتائج التفريط في الدين خطيرة وعظيمة، ولا تقل عن نتائج الغلو والمغالاة والإفراط في الدين، فإذا كان الإفراط والغلو يؤدي احياناً الى الكفر والهلاك، فكذلك التفريط قد يؤدي الى الكفر والهلاك، وإذا كانت المغالاة تتنافى مع الفطرة والواقع والحياة وتتعارض مع النصوص الشرعية، والأحكام الفقهية، والسلوك العملي، والتطبيق الواقعي للدين الصحيح، فكذلك التقصير في الدين يشوه معالمه، ويبطل أهدافه ومقاصده، ويحبط أجر المقصر، ويعطل أحكام الشرع، ويشل حركة الحياة، وينقض دعائم الإسلام، ويهدم أركانه ويعطي صوراً متناقضة، وألواناً متنافرة، ومناظر مقرفة عن المتلبسين بالدين، وهنا نعرض أهم نتائج التفريط وأخطاره فيما يلي :

1 - الكفر :

إن التفريط في أركان الإسلام، ودعائم الإيمان، وقواعد الشريعة، يوصل صاحبه إلى هاوية الكفر والشرك، والعياذ بالله،

ولو لم يقصد فاعله ذلك، فالصلاة - مثلاً - عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدِّين، ومن ضَيَّعها فقد ضيَّع الدِّين، لقوله صلى الله عليه وسلم :

«بيْنَ الرجلِ والكفرِ تركُ الصَّلاة».

وفي رواية :

«بَيْن الرجلِ وَبيْن الشِّرْك والكفرِ تركُ الصلاة».

وفي رواية :

«ليس بينَ العبدِ وبين الكفر إلا تركُ الصلاة».

وفي رواية :

«بين الكفر والإيمان ترك الصلاة»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«العهد الذي بَيْننا وبينهم الصلاةُ، فمن تركها فقد كفر»[2].

---

(1) الحديث الأول رواه الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه، والثاني رواه مسلم، والثالث رواه أبو داود والنسائي، والرابع رواه الترمذي، (انظر الترغيب والترهيب، للمنذري 378/1 وما بعدها).

(2) هذا الحديث رواه الإمام أحمد وأصحاب السُّنن وابن حبان والحاكم عن بُرَيْدَة رضي الله عنه.

وقال عليه الصلاة والسلام :

«ولا تتركوا الصلاة متعمدين، فمن تركها متعمّداً فقد خرج من الملة»[1].

وكذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم همَّ بإحراق بيوت المتخلفين عن الجمعة، وهدَّد بتحريق بيوت المتخلفين عن صلاة الجماعة في المساجد، وأن أبا بكر رضي الله عنه قاتل مانعي الزكاة مع المرتدين، وقال الفقهاء:" بقتال البلد الذي يُقصِّر عن إعلان الأذان للصلاة، وهدَّد القرآن الكريم القاتل عمداً بعقوبة الكافر بالتخليد في جهنم، وهدد أكلة الربا بحرب من الله ورسوله، وقال عليه الصلاة والسلام :

«منْ أحْدَثَ في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2].

وهذا يدل صراحة على أن التفريط والتقصير في الدين يؤدي الى الكفر، لأنه يدل على ضعف الإيمان، أو اختفائه، أو اختلاطه بالكفر، وهو النفاق ، أو انعدام تأثير الايمان وتلاشيه.

---

(1) هذا الحديث رواه الطبراني ومحمد بن نصر بإسنادين لابأس بهما، وهو جزء من حديث عن عبادة بن الصامت.

(2) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة رضي اله عنها مرفوعاً.

وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عمن يأخذ بعض الدين، ويهمل بعضه الآخر، ويطبق بعضه، ويتناسى بعضه الآخر، وأن جزاءه الكفر، وأنه يستحق العقاب الأليم.

فقال تعالى :

﴿ وَآمِنُواْ بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَتَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ .

{ البقرة 41}

وقال عز وجل :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

{البقرة 79}

وصرّح القرآن الكريم بكفر هؤلاء المفرطين، والمقصرين، والمزقين لدين الله، فقال تعالى عنهم :

﴿ ...نُؤْمِن بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾.

{النساء 150- 151}

وصوّر القرآن الكريم هذه النماذج بصورة مضحكة، وبيّن الجزاء والعقوبة لها في الدنيا والآخرة، فقال عز وجل:

﴿ ... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالأُخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

{البقرة 85 - 86}

ومن هذا المنوال مايتكرر سماعُهُ ممن ينتسب إلى الإسلام، ويعلن انتماءه للدين، ويتلفظ بالشهادتين، وقد يؤدي بعض الفرائض، لكنه يَسُبُّ الدين صراحة وجهاراً، أو يسب الله تعالى، أو يسبّ الرسول صلى الله عليه وسلم، أويشتم دين

زوجته وأولاده، فمن فعل ذلك حكم عليه بالردّة والكفر، والعياذ بالله، وقال بذلك الإمام مالك والإمام الشافعي، والإمام أحمد والليث وإسحاق، مستندين إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ... ﴾.

(التوبة 12)

ويترتب على ذلك نتائج خطيرة وجسيمة، كالخروج من إطار الدين، وبينونة زوجته منه رأساً لاعتبار العقد مفسوخاً مباشرة، وتسقط حجة الإسلام، ويحرم من الميراث، من أقاربه المسلمين، ويحرم أبناؤه من إرثه، وتصبح علاقته مع زوجته بحكم الزنا، وإن جاءه أولاد كان حكمهم حكم أبناء الزنا.[1]

وهذا ماقاله الأئمة أيضاً في تارك الصلاة مع تفصيل في ذلك، ننقله عن العلامة النووي فيقول :

---

(1) انظر تفصيل ذلك في كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي غياض اليحصبي، ص 295 وما بعدها، وكتاب «الإعلام بقواطع الإسلام» لابن حجر المكي الهيتمي ص 355 وما بعدها» مطبوع مع كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر».

«إذا ترك الصلاة جاحداً لوجوبها، أوجحد وجوبها ولم يترك فعلها في الصورة فهو كافر مرتد بإجماع المسلمين، ويجب على الإمام قتله بالردة إلا أن يسلم، ويترتب عليه جميع أحكام المرتدين، وسواء كان هذا الجاحد رجلاً أو امرأة، هذا إذا كان قد نشأ بين المسلمين ، فأما من كان قريب العهد بالاسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة من المسلمين، بحيث يجوز أن يخفي عليه وجوبها فلايكفر بمجرد الجحْد، بل نعرفه وجوبها، فان جحد بعد ذلك كان مرتداً، ... وإن تركها تكاسلاً مع اعتقاده وجوبها فمذهبنا المشهور، ماسبق أن يقتل حداً، ولايكفر، وبه قال مالك والأكثرون من السلف والخلف، وقالت طائفة يكفر، ويجري عليه أحكام المرتدين في كل شيء، وهو مروي عن علي بن أبي طالب، وبه قال ابن المبارك واسحاق بن راهويه، وهو أصح الروايتين عن أحمد، وبه قال منصور الفقيه من أصحابنا، كما سبق، وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه وجماعة من أهل الكوفة والمزني: لايكفر، ولايقتل، بل يُعَزَّر ويحبس حتى يصلي، واحتج من قال بكفره بحديث جابر رضي الله عنه .... »[1].

---

(1) المجموع شرح المهذب 16/3، 18 ومابعدها وانظر: الفقه الاسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي 502/1.

قال الشيخ مصطفى محمد عمارة:

«ماعذرك ياتارك الصلاة، وقد رأيت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيح دمك، وضياع مالك، وذهاب قيمتك في الحياة، حتى قال العلماء :

امرأته طالق، لأنه نقص قدره، وقلت درجته، وصار دنيئاً ليس كفؤاً في نظر الشارع لها، هذا في الدنيا، فما بالك في الآخرة؟!»[1].

وهذه أدلة صريحة على أن التقصير في الدين قد يؤدي إلى الكفر، لأنه دليل على ضعف الإيمان في النفس، وأن شعلة العقيدة قد خبا نورها في القلب، واختفى أثرها، فانعكس ذلك على التقصير بالواجبات الأساسية، والتفلت من الأحكام المهمة، والتهرب من أهم أركان الإسلام .

---

(2) انظر كتاب الترغيب والترهيب، للمنذري، تعليق وضبط مصطفى محمد عمارة 380/1، هامش .

2 - إحباط العمل:

إن المقصر في الدِّين، الذي يطبق جانباً منه، ويهمل جانباً آخر، يحبط الله عمله فيما فعل في الدنيا والآخرة، ويضيع الثواب الذي ناله ويسقط الأجر الذي اكتسبه.

وقد حذّر القرآن الكريم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفع الصوت أمامه، وايذائه بالنداء، وعدم التأدب اللازم معه، وأن ذلك يحبط أعمالهم الصالحة، فقال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَتَشْعُرُونَ ﴾.

{الحجرات 2}

وبيَّنت النصوص الشرعية الكثيرة أن العبادات في الإسلام شرعت لأهداف روحية ونفسية واجتماعية وأخلاقية، وصحية كما نسرى فيما بعد، ولم تشرع لمجرد الخضوع والطاعة لرب العالمين فحسب. فقال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة 21)

وسيرد مزيد أدلة وبيان فيما بعد، مما يدل دلالة أكيدة أن العبادات شرعت امتثالاً وطاعة لله عز وجل، ولتربية النفوس، وتهذيب الأخلاق، وسمو الروح، وتوجيه الأفراد نحو الكمال، والاستقامة، وتوثيق العرى الاجتماعية، وتحقيق التكافل الاجتماعي، وإزالة الأحقاد، وايجاد التعاون المتين بين المسلمين وأفراد المجتمع، فإذا أخذ جانب من الأحكام، وقصر المسلم في الأداء الكامل والصحيح فان هذه الأهداف ترتفع، وتصبح أشكالاً جوفاء، لافائدة منها، ولاثواب لها ، ولايستحق صاحبها الأجر، وهذا ماصرحت به الأدلة الشرعية، والنصوص العديدة، وحذرت من الآفات التي تحبط العمل.

فالصلاة مثلاً: اذا كانت ناقصة، مبتورة، رُفعت فوق رأس المصلي، وطُويت، ثم يضرب بها رأسه، وهي تلعنه، وتقول: «ضيَّعك الله كما ضَيَّعْتني».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«مَنْ لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَد من اللّه إلا بعداً»[1].

وقد ينال المصلي الويل والثبور بسبب الصلاة التي ضيّعها، ولم يكملها، ولم يحسنها، ولم يؤدها الأداء الكامل.

قال تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾

(الماعون 4 - 5)

ومن صام رمضان، وقصر في أحكام الصيام، وفرّط في بقية أحكام الدين، فلاثواب له ولاأجر وليس له إلا المشقة والحرمان، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصيام :

«من لم يَدَع قولَ الزور والعملَ به، فليسَ للّه حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَه»[2].

---

(1) رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) رواه البخاري وابو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ربَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوعُ والعطشُ»[1].

والزكاة فريضة وعبادة وآفتها المنُّ والإيذاء والرّياء، ولذلك حذّر القرآن الكريم من ذلك، وإن وقع شيء منه أفقدها قيمتها وثوابها وأجرها، قال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُون عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾

{البقرة 264}

---

(1) رواه النسائي وابن ماجه وأحمد والحاكم، وابن خزيمة والبيهقي ، وله روايات أخرى عن الامام أحمد /505.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن امرأة تؤدي الفرائض لله تعالى من صلاة وصيام وزكاة، ولكنها تؤذي جاراتها، فقال عليه الصلاة والسلام :

«هي في النار»[1].

فمن أدى أركان الاسلام ، وفرّط في غيرها، أو انتهك حرمات الله وارتكب الآثام وخلط في عمله، وأدى بعض الفرائض والواجبات والأعمال الصالحة فلاشيء له من الأجر والثواب، وهذا مابينه المعلم الأول، والمربي المثالي، والداعية الحكيم، محمد صلى الله عليه وسلم بمثال عملي، وحوار تربوي، وأسلوب واضح، ومنهج قويم، فيسأل الصحابة رضوان الله عليهم:

«أتَدرون من المُفلِس؟ قَالُوا: المُفلس فينا من لادِرْهَم له ولادينار، (وفي رواية ولامتاع)، قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، و أكل مال

(1) رواه الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، مسند أحمد 2 / 440 وله تتمة فيمن تلتزم بالاسلام، وأحكام الدين كاملاً، وإن قلّ ، فانها في الجنة.

هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فان فَنِيتْ حَسَنَاته قَبْل أن يقضيَ ما عليه أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحِ في النَّار»[1].

فهذا الحديث يصور حالة مرضية شائعة اليوم في المجتمع، وتصدر عن كثير من الأفراد، وهي حالة شاذة عن الدِّين، بعيدة عن الحق، تتنافى مع التدين الصحيح، والتربية الإسلامية القويمة، يعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحوار واستنتاج، ليقرب إلى الأذهان حكماً شرعياً، بقياسه على حالة مادية معروفة، ويستخدم عليه الصلاة والسلام مختلف الأساليب التربوية، لتحقيق أهدافه، وتبليغ رسالته، وتوجيه أصحابه، وهو المصلح الاجتماعي الفريد، والمربي القدوة.

وتشمل هذه الصورة، وهي كثيرة الوقوع، نماذج متعددة لما يجري في حياة المسلمين اليوم، من تمزيق الدين، وحصر

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد (2/303، 334، 372) ومسلم (16/135) والترمذي (7/102) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

شعائره في زاوية المسجد، وفي إطار العبادة فقط، وفصل الدين عن الحياة والواقع، وكأنه لا علاقة للدين بالأخلاق العامة، والسلوك الاجتماعي والتعامل المالي، فالتدين - في نظرهم - علاقة بين الإنسان وربه، وأما علاقة الإنسان بالمجتمع وبني جنسه فتحكمها الأهواء، والنزوات، والجشع والمطامع، والمادة، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبـاً﴾.

{الكهف 5}

وكان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى الغيب بما يطلعه الله عليه، ويعرف ما سيصير إليه المسلمون من انفصام الشخصية، وفصل القول عن العمل، وحصر العبادة في زاوية مهملة أو ميتة وفقدان تأثيرها على الحياة والتعامل، مع ضياع الزمن والوقت وهو أغلى رأسمال للإنسان.

فحذّر الرسول الحكيم من ذلك، ونبه على هذا الخطر، ووصف الدواء لهذا المرض، وهو المرسل لكشف الأمراض ومعالجتها، والإنذار من المخاطر والأوبئة، وليضع الوقاية لها قبل وقوعها.

فالإسلام دين الحياة، ونظام المجتمع، وهو كلٌ لا يتجزأ، أنزله الله تعالى، ليخرج الناس من الظلمات الى النور.

ولذلك حدد الشطر الأخير من الحديث إنكار الإسلام لهذه الحالات بشكل قطعي ويقيني، وبيّن بجلاء ووضوح موقف الإسلام من ذلك، وأن صلاة المرء وصيامه وزكاته لا تنفعه شيئاً، وأن حصيلتها ذهبت أدراج الرياح، وتحولت الى حساب غيره، فحبط عمله، ولم يقف الأمر عند ذلك، فإن فنيت حسناته، ولم يبق منها شيء أخذ من سيئات الآخرين، وأوزار أعمالهم فألقيت عليه، ثم طرح في جهنم، والعياذ بالله تعالى منها.

وهذا هو المفلس الحقيقي في نظر الشرع، لأنه يهلك هلاكاً تاماً، مع البوار الدائم والكامل، وينعدم أمله ورجاؤه، بشكل قاطع، أما من قلَّ ماله، وفقد متاعه، وخسرت تجارته، وتراكمت عليه الديون، وعجز عن أداء الحقوق المالية في الدنيا، فإن إفلاسه سهل وهين، لأنه مؤقت بالحياة الدنيا الفانية، ويُحتمل زواله بما يحصل عليه في مستقبل أيامه، من ربح ورزق، ثم ينتهي وضعه بمجرد موته وانقضاء اجله، فالمال ظل زائل يغدو ويروح، أما في الآخرة فإما نعيم دائم، وإما شقاء وبيل مستمر.

والحديث الشريف جمع بين حقوق الله تعالى في الصلاة والصيام والزكاة، وبين حقوق العباد في حفظ الدم والمال والعرض، وقارن بينهما، وقابل بين الأداء والترك فيهما، وأن الاكتفاء بأداءِ حقّ الله تعالى لا يغني عن حق العباد، وفوق ذلك فإن حقوق الله تعالى تنفع فيها التوبة المخلصة، والاستغفار

والإنابة الى الله تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾.

{طه 82}

أما حقوق العباد فلا بدَّ من أدائها بذاتها، أو قضائها بمثلها، أو ضمانها بعوض لأصحابها، وإلا بقيت في ذمة الشخص، ثم يسأل عنها، ويحاسب بسببها يوم القيامة، ويلقى جزاءها مالم يتنازل عنها أربابها.

ولذلك يرشد القرآن العظيم الى الالتزام الكامل بالدين والأحكام، وعدم السعي بما يحبط الأعمال الصالحة، فيقول تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ ﴾.

{محمد 33}

3 - تشويه معالم الدين:

إن التفريط في الدِّين، والتقصير في أحكامه، يشوِّه الدين الحق، الذي أنزلهُ اللّهُ تعالى نوراً وضياء ساطعاً، ومصباحاً منيراً، ليرشد الناس الى الخير، ويؤمن لهم السعادة، ويحقق لهم مصالحهم الكاملة، لأن الشريعة الغراء تحقق هذه الأهداف بمجموع أحكامها، ولذا يجب أن تؤخذ كاملة، رجاء الانتفاع بها، والحصول على ثمراتها ومقاصدها وفوائدها.

أما تطبيق بعض أحكام الشرع الحنيف، والتقصير في بعضه الآخر، فإنه يشوه الرسالة السماوية الخالدة، ويبدد معالمها، ويطمس محاسنها، ويسيء اليها، ويفقدها رَوْنَقها، ويضيع حكمتها وثمارها، لأن الأحكام متكاملة، والشريعة كل لا يتجزأ، ويصل عند التفريط في بعض الجوانب الى عكس النتائج تماماً، كما نلاحظ اليوم، وتُقلب الصورة رأساً على عقب، ويظهر هذا جلياً في حياة الأفراد الذين يُفرطون بحسن نية أو سوء طوية - في تطبيق الإسلام كاملاً، ويؤدون واجباً، ويُغفلون أو

يتغافلون عن ثمراته وتوابعه، مما يُنَفِّر الناسَ منهم ومن تديُّنهم، ويعتبرونهم وصمة عار للدين والتدين، ويؤخذون حجة على فساد الدين، أو قلة جدواه وعدم أهميته، كمن يحتمي بالشرع في إباحته لتعدد الزوجات، ولكنه يفرط في معظم الأحكام الشرعية المقررة في ذلك، ويتخطى الآداب الإسلامية في هذا الإطار، وينحاز لزوجة وأولادها وأهلها، ويُعرض عن الأخرى، ويظلم أولاده منها، ويسيء الى أهلها، حتى تُصبح كالمعلَّقة التي حذر الشرع الحكيم من صورتها، ومثل من يستخدم حقه الشرعي في الطلاق دون أن يلتزم بقيوده الشرعية، وآدابه الإسلامية، وأخلاقه الاجتماعية، ولا يقف عند حدود الله التي شرعها، ليصبح الطلاق وكأنه سيف مُسلَّط على رقاب النساء، وسلاح فتاك في يد الرجل يهدِّد به كل حين، ويشهره حين يشاء، ويتلاعب به متى يريد، متعسفا باستعمال حقه، متجاوزاً حقوق ربّه، فهو يستحق التأديب والتعزير في الدنيا قبل الآخرة.

ويظهر هذا التشويه للدين، والفساد والإفساد فيه، عندما يقوم الحكام - قصداً أو بدون قصد - الى تطبيق جانب من الدِّين، ويَبْتُرون جزءاً منه ليطبقوه في مجتمع يتنكر للعقيدة والأخلاق، أو يحتاج الى التربية الدينية، أو يعوزه الإيمان الصحيح والوعي الكافي، ويحاول بعض الحكام ترقيع الأنظمة القانونية المستوردة ببعض الأحكام الشرعية بدون انسجام ولا توافق، فتظهر فيها الغرابة والنشاز، فيظلمون الدين، ويلَطِّخون سمعته، وينتزعون الروح والحياة من أحكامه وشرائعه.

وكأن هؤلاء القوم، سواء كانوا أفراداً أم حكاماً، يهدفون الى تأكيد عدم صلاحية الشريعة الغراء للتطبيق، وانتهاء وظيفة الدين في الحياة والمجتمع، وإجهاض الفكر الديني، وإحباط الدعوة الصحيحة للعودة الى الدِّين الكامل، وقد يستعينون على تنفيذ مآربهم بفتاوى مبتورة، وأنصاف علماء، وأدعياء في الفقه والتخصص الشرعي، ويظهر على الساحة طفيليون لا يعرفون من الدين إلا اسمه، ولا من الفقه الا رسمه، ويتنطعون في المتاجرة في الدين، ويخبطون خبط عشواء، ويعتلون كراسي التوجيه والإرشاد.

وهنا لا بدَّ من الاعتراف بصراحة، والنطق بالحق، ولو كان مراً، وهو أننا نرى اليوم مسلمين، ولا نرى إسلاماً، وأن المسلمين اليوم عبء على الاسلام، وشنار في جبينه، ووصمة عار تلطخ صفحته، وأن الكثيرين يعرفون الإسلام نظرياً، ولا يجدون في الحياة والعمل والتطبيق مسلمين، بسبب هذا التفريط والتقصير.

ولكن هذا الواقع المؤلم لا يدفعنا الى اليأس والقنوط، لأن الله تعالى حفظ هذا الدين من التحريف والتبديل والتغيير، ولا يزال كالشمس الساطعة، ولاتزال النماذج الفردية له قائمة، والحجج العملية لصحته وسلامته وصلاحه متوفرة، وأن الطريق إلى العودة إلى رحابه، والتفيؤ بظلاله، بسيط وسهل، ولا يحتاج إلا أن نفتح أعيننا على النور، ونبصر الطريق امامنا، ونعلن من قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا الاتجاه الصحيح والصادق الى الله تعالى، والاعتصام بكتابه، والتأسي برسوله، والتمسك بسنته، والتبرؤ من غير ذلك، قولاً وعملاً، كلاً وجزءاً ، منهجاً وسلوكاً، عقيدة وشريعة، فتزول الشبهات، وتصحح المفاهيم، ويخنس الشيطان وأعوانه، ويعافى الناس من امراضهم، ونظفر بالسعادة

في الدنيا، ونكسب رضاء الله تعالى، والفوز بجنته في الآخرة، وهذا ما بينه الحديث الشريف الذي رواه العِرْباض بن سَارية قـال :

«وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَوْعظةً ذَرَفت منها العيون، وَوَجلَت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إنَّ هذه لموعظةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تعهد الينا؟ قال: قد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يَزيغُ عنها بعْدي الا هالكٌ، ومن يَعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سُنَّتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضوا عليها بالنَّواجذ..». الحديث[1].

4 - نقض الإسلام وهدمه كلياً:

وهو النتيجة المترتبة على المساعي السابقة في تمزيق الدين وتشويه معالمه، وهذا ما يسعى اليه أعداء الله من شياطين

---

(1) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد (١٢٦/٤) وابن ماجه (١/٤، ١٦)، والحاكم، و«البيضاء» الملة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشُّبه اصلاً، والشريعة الناصعة الكاملة

الإنس والجن، ومن المستشرقين والمستغربين، ومن أتباعهم ومن سار في فلكهم، ومن أصحاب الدعوات الإلحادية، والتيارات الفكرية المستوردة، التي تسعى بالتآمر والتخطيط الى نقض عُرى الإسلام، وهدمه حجراً حجراً، ولبنة لبنة، فلا يبقى منه إلا الاسم، وهذا هو الهدف المرسوم للغزو الفكري، والاستعمار التشريعي، والاستغلال الاقتصادي، والاحتلال العسكري لبلاد الإسلام والمسلمين، مع تجزئتها، واقتطاع الأجزاء منها، والانفراد بها، وتنفيذ مؤامراتها رويداً رويداً، وقطراً قطراً، وقانوناًفقانوناً.

وقد يلجأ اصحاب هذه الدعوة الباطلة للتلفيق والتضليل، والضحك على أصحاب النفوس الضعيفة، والإيمان الواهي، فيوحون إليهم بترك الأمور السهلة والبسيطة في الدِّين بحجة الاهتمام بالمهم، والتقيد بالأهم، وهي كلمة حق أريد بها باطل، ليقوم المسلمون بأنفسهم بالتخلي عن جزء من دينهم وشريعتهم، ليخربوا بيوتهم بأيديهم. وهذا ما بينه الرسول الكريم، وكشفه للمؤمنين سلفا ليحْذَرُوه، فقال عليه الصلاة والسلام :

«لَيُنْقَضَنَّ عرا الإسلامُ عُرْوةً عُرْوةً، كما يُنْقَضُ الحبل قوة قوة»[1]

وقال أيضاً:

«لَيُنْقَضَنَّ عرا الإسلام، عُرْوةً عروةً، فكلَّما انقضتْ عُروةٌ تشبَّث النَّاسُ بالتي تليها، فأوَّلهن نقضاً الحُكمُ، وآخِرُهنَّ: الصلاة»[2].

أي ستُفك روابط الإسلام ، وتزول عروة عروة، وهذا كناية عن المخالفة والعصيان وغشيان المحارم، وكلما نقض المسلمون عُروة من أحكام الدين وآدابه اتبعوا التي تعقبها، وهكذا يستمر النقض، والهدم، ويدوم الإنكار والعصيان، حتى تنقطع أواصر العمل بأوامر الدين، وفرائض الإسلام، وأحكام الشرع، وأول العُرى نقضاً وهدماً: الفقه والحكم بما أنزل الله تعالى والخلافة

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد عن فيروز الديلمي رضي الله عنه مرفوعاً، مسند أحمد (232/4).

(2) هذا الحديث رواه الإمام أحمد (5 / 251) وابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن ص 87) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

وإقامة العدل في حفظ الحقوق وأداء الواجبات، حتى ينحصر الدِّين في العبادة والمسجد، ليكون آخر الهدف: الصلاة[1].

وإن أحداث التاريخ ومجراه في القديم والحديث تؤكد ذلك، وقد تم كلياً في الأندلس، ثم في تركستان، ثم في فلسطين وغيرها، ويتم جزئياً ومرحلياً في معظم البلاد العربية والإسلامية، خلال الحروب الصليبية، وأثناء الاستعمار الغربي الحديث، وتحت ظل الأنظمة المستوردة والموالية للشرق والغرب.

كما تمَّ ذلك جزئياً من بعض غلاة المتصوفة الذين غالوا في جانب، وقصروا وفرطوا في جانب آخر، كمن يدعي سقوط الأحكام والتكاليف الشرعية والواجبات الدينية عمن وصل الى مقام معين، محتجاً بقوله تعالى :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.

(الحجر 99)

---

(2) انظر الترغيب والترهيب 1 / 385، فيض القدير بشرح الجامع الصغير 5 / 399

مدعياً أن الهدف من العبادة هو الوصول الى درجة اليقين، ومتى تحقق اليقين سقط التكليف، وهذا في غاية الإفراط والتفريط، والتلاعب في نصوص الدين، وتأويل آيات القرآن بالرأي والهوى والتشهي، مما لم يقله مسلم صادق، ولا يدعو إليه نبي سابق، أو رسول مرسل، فيكف بهؤلاء ؟؟.

5 - التناقضات السلوكية والاجتماعية:

وينتج عن التفريط في الدين، والتقصير في أحكامه، كثير من الأمراض الاجتماعية التي تعشعش بينهم، وتفتك بهم، وتمزق شملهم، وتفرق جمعهم، وتعطي صورة سيئة عن المسلمين، وتنفر الناس منهم، وتدفع غير المسلمين في الشك في الإسلام نفسه، وفي صلاحيته لإصلاح الفرد والمجتمع، ويتخذ أعداء الإسلام من هذه الأمراض أسلحة للهدم، وبراهين للطعن.

وتظهر هذه التناقضات والأمراض على بعض المتدينين، الذين يعتزون بانتسابهم للإسلام، والتزامهم الجزئي بأحكامه، وتطبيقهم لبعض تعاليمه، وقد يحملون على غيرهم بالتقصير،

ولكنهم لا يقدمون لهم المثل الطيب، والنموذج الصحيح لشرع الله تعالى، وأثر الدين عليهم، بل قد تؤدي المقارنة في بعض الأحيان لتفضيل غير المتدين على المتدين من حيث الظاهر، لما يظهر على المتدين من ظواهر مرضية، وتناقضات سلوكية في نفسه وشخصيته، أو في تربيته وبيته، أو في بيئته وأسرته، أو في تعامله مع غيره اخلاقياً ومالياً، سواء في مجال العقيدة والفكر، كالمفهوم الخاطيء عن صفات الله تعالى وأنبيائه ورسله والقضاء والقدر، والتقصير في الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على المغيبات وخوارق العادات وبعض الأوهام والسخافات، أم في مجال العبادات التي لا تحقق معناها، ولا تنتج أهدافها التي أشرنا إليها، وسوف نأتي على بعض تفصيلاتها، أم في مجال الأحوال الشخصية وأحكام الأسرة، كسوء تعامله مع الزوجة، وقطع صلة الأرحام، أو في شروط الزواج واختيار الخطيبة، والمغالاة في المهور، وفي الحفلات المشبوهة، أو عند الطلاق والافتراق ومعاملة الأولاد، أو في المجاملات التي تخرج عن الخلق والدين، أم في مجال المعاملات المالية في البيع والشراء، والشركة والقرض، والوديعة والأمانة.

ومن العجيب والغريب معاً أن هذه التناقضات والأمراض التي تنتاب الأفراد أو المجتمع، أو التي يثيرها الجدل والنقاش ليست من الدين الصحيح، وأن الاسلام منها بريء، بل حذر من وقوعها، وهدّد مرتكبها، وحاربها، وقضى على جذورها، وذلك في نصوص صريحة لا تحتاج إلى أي اجتهاد أو تأويل، ولا تتوقف على شرح أو تفسير، وإنّما تتعطش الى التنفيذ والتطبيق، والالتزام الصحيح.

ونأخذ مثالا في هذا الخصوص، من واقع الحياة والمجتمع، ونرى التوجيه الإسلامي السديد نحوه، والبيان النبوي الفكري فيه، ثم التناقضات السلوكية والعملية على أهله، وهو اداء العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج، مع المحافظة عليها، والمواظبة على القيام بها، وإعلانها أمام الناس بل والافتخار بها، والتباهي بالتمسك فيها، والحفاظ عليها، والحرص على الاتصاف بألقابها في أنحاء المجتمع، ولكن صاحبها يقتصر على ذلك، ويحدد الإسلام والدين والتدين بها، ويطلق العنان لنفسه وراءها، ولا يجد حرجاً أن يسير وراء شهواته وغرائزه، وأن يتبع الشيطان وحزبه في ارتكاب الذنوب والانغماس في

المحرمات، وتجاوز المقدسات الدينية، فإذا قضى وطره، وحان وقت العبادة لبس جلبابها، وارتدى رداءها، وغرق في مظاهرها، وكأن الإسلام ثوب يُلبس للمناسبات، ويخلع بعدها.

وكذلك نذكر صوراً للتناقضات السلوكية والاجتماعية المتفاوتة التي تلوكها الألسنة، كمن يبني المساجد، ويشارك في الخيرات والجمعيات الخيرية والاجتماعية وفي نفس الوقت يغرق في الربا والاحتكار والغش، وكالمرأة التي تلبس الحجاب الشرعي ثم تتجمل بجميع انواع الزينة في الشوارع، وترقص في الحفلات المختلطة مع الرجال، ومن يمارس الشعائر ويشرب الخمر، ويقلد الأجانب في عاداتهم وتقاليدهم، كما سنرى بعد قليل، و هذا يمثل تمزيقاً للدين من جهة، وصوراً متنافرة في السلوك، وتناقضات فكرية وسلوكية واجتماعية من جهة أخرى.

وقد يزداد الأمر سوءاً مع فريق آخر، فيؤدي العبادات الإسلامية، وما شاء له من الأحكام الشرعية، ثم يتخلى عن الباقي، فيسلخ من الدين ما يشاء، وبما يتفق مع أذواقه وأهوائه وميوله، فيلتزم به، ويدير ظهره لما يشاء، ويتجه الى أديان اخرى، وأنظمة وضيعة، وتيارات فكرية ليسير عليها، فيحاول أن يجمع

بين عدة شخصيات في آن واحد، ويلبس عدة أزياء ويتبنى عدة اتجاهات، وكأنه يقول للناس: إنَّه مسلم متمدن، أو مسلم معاصر، أو مسلم متسامح، أو مسلم متطور، ولا يدري أنه أضاع شخصيته، وفقد كيانه، ولم يكتسب الشخصية الأخرى ولم يَحْظ بالانتماء الجديد، وأصبح مكان الهزء والسخرية، والضياع والتيه، ليصاب بازدواج الشخصية، بل قل: بتعدد الشخصيات، أو انفصام الذات.

وهذا ما بينه القرآن الكريم، فقال تعالى :

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَنَصِيرٍ ﴾.

[البقرة 120]

وقال تعالى :

﴿ ... فَإِنَّهَا لاَتَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾.

[الحج 46]

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق السوي للمسلم الصادق المتزن في أحاديث كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه، والمؤمنُ من أمِنه الناس على دمائهم وأموالهم»[1].

فليس الإسلام مجرد شعارٍ ولقب، ولا يقتصر على أداء العبادات والفرائض فحسب، بل المسلم الحقيقي هو الذي يردعه اسلامه عن الظلم والعدوان، وسوء الأخلاق مع غيره، سواء كان بيده، أم بلسانه، ويجتنب ما نهى الله عنه من المحظورات والمفاسد، ثم يدفعه إيمانه الى الحفاظ على أموال الآخرين وأعراضهم ودمائهم، ليحب لهم ما يحبّه لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، لأن الإسلام إيمان بالقلب، ونطق باللسان، وتطبيق عمليٌّ بالجوارح والتزام في مختلف جوانب الحياة.

---

(1) هذا الحديث ورد بروايات متعددة، ورواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه، ورواه مسلم عن جابر رضي الله عنه، ورواه أبو داود النسائي وأحمد، وقال السيوطي: «الحديث متواتر ومن جوامع الكَلِم» . (فيض القدير 6 /270، فتح الباري 1/50، مسند أحمد 2 / 163 ، 192، 21/6) .

6 - وأخيراً ينتج عن التفريط في الدِّين تدمير الحياة، وفساد الأحوال، وضنك المعيشة، والخمول في الأعمال، والتأخر في العلم، والانحطاط في كل شيء، لعدم الأخذ بالأسباب الصحيحة، والسبل السليمة للرقي والتقدم، والعلم والسعادة والحضارة، مع الركون الى الكسل والارتخاء والتسويف والامبالاة، والاعتماد على الغير، والانغماس في الشهوات واللذائذ والمخدرات، وهو ما يخطط له الاستعمار وأعداء الأمة والدين، وبالتالي تسوء الأحوال العامة والخاصة، وهو ماتراه العين اليوم في العالم العربي والاسلامي، وهو ماتسمع به الأذن عن أوضاع المسلمين في هذا العصر، وهو ماحذر منه القرآن الكريم، فقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أُعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾

{طه 134 - 136}

وقال تعالى :

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمْ الفَاسِقُونَ ﴾.

(الحشر 19)

وقال تعالى :

﴿ ... وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾.

(الكهف 28)

علماً بأن التفريط في الدين، والتقصير في أحكامه، والاعراض عنه، لايضر إلا صاحبه، وإن دين الله سيبقى حتى تقوم الساعة، وقد تكفل الله بحفظه ورعايته.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾.

(الصف 8 - 9)

ونقل المناوي عن القُيْصَري قال :

«الإسلام عظيم، وحال شريف، من تحقق به في الدنيا فحاله حال أهل الجنة في العقبى، ومعناه الانقياد للأوامر، وترك الاستعصاء لها، والإمساك عن إيذاء من دخل في الإسلام من جميع الخلق، ونفع أهله، وكف الأذى عنهم»[1].

7 - الافتتان بالدنيا والتعلق بها:

ومن الصّور الشائعة للتقصير في الدين، والتفريط في أحكامه صورة الفتنة بالدنيا ومتاعها، والتعلق بها، ونسيان ماوراءها ، حتى تكاد أن تصبح الأمل والغاية تقليداً وتأثراً بما يقوله الدهريون، ولذلك نعرض هذا الموضوع ومايتعلق به، ويتصل فيه،ليعرف المسلم مكانه الحقيقي.

---

(1) فيض القدير 6 / 270.

وذلك أن الفرد أو المجتمع يتعرض دائماً وباستمرار الى عوارض متعددة، وظروف طارئة، وتطورات كثيرة، وأمراض مختلفة، ويتفاوت ذلك بحسب طبيعة المؤثر الجديد، والجرثوم المهاجم، وبنيان الفرد أو المجتمع، ومدى استعداده لقبول العنصر الجديد، والعوامل المساعدة.

وقد ينتاب الفرد أو المجتمع مرض عارض ويزول بسرعة دون أن يترك أثراً ما، وقد يصاب الفرد بمرض معين، فيقتصر عليه، ولايمتد الى المجتمع، ولاتحس به الأمة، وقد يتحول المرض من الفرد الى المجتمع فيصبح مرضاً قاتلاً، ووباء فتاكاً، ويكون اثره ازهاق الفرد، وابادة الأمة، وسحق المجتمع، وقد يكون العكس بانتقال الوباء من المجتمع الى الفرد، ويختلف تأثيره بحسب عوامل متعددة، وقد ينجو الفرد من ذلك، ويبقى معافى في فكره وعقله، وجسمه وسلوكه.

وان أمراض الإنسان كثيرة، منها عضوية، ومنها نفسية، ومنها اجتماعية، وهي في معظمها أمراض عامة لاتخص فرداً أو مجتمعاً أو أمة، فاذا حلت في فرد أو مجتمع أو أمة فلابدَّ أن تظهر أعراضها، وينتشر خطرها، ويحس بالامها المصاب وغيره وقد تفتك بالمريض، وتؤدي الى العدوى، لتفتك بالمجموع.

ومن هنا تقوم الديانات السماوية، والمفكرون في كل أمة، والمصلحون في كل مجتمع، بمجابهة هذه الأمراض، ووصف الأدوية لها بل يسارعون الى التحذير منها لأخذ الوقاية والمناعة قبل أن تحل وتستشري بين الناس، لأن الوقاية خير من العلاج، وبذلك ينقذون الأمة والمجتمع من الأخطار المحدقة، ويجنبون الأفراد من ويلات تحيق بهم، وتهدد وجودهم.

ومن هذه الأمراض الفتاكة التي يشترك فيها الفرد والمجتمع، وتنذر الأمة بالويل والدمار وتعد إفراطاً في الفكر والسلوك، مغريات الحياة الدنيا، والافتتان بها، والتعلق بجوانبها، والسعي وراءها، وشخّصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرض الوهن الذي بيّن لنا أعراضه وأسبابه، وحذر منه، وهو اليوم واقع قاتم بين المسليمن .

أ- تعريف الوَهْن:

الوَهْن في اللغة العربية: الضعف، سواء كان مادياً أم معنوياً، وسواء كان في الفرد أم في المجتمع، من وَهَن يَهن وَهْنا أي ضعف.

ويقال: وهن عظمه، واسم التفضيل أوهن،

ويقال: وَهَن الرجل أي جَبُن عن لقاء عدوه،

وهذا داخل في الضعف، وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى في عدة آيات، فقال تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ... ﴾،

{مريم 4}

وقال تعالى :

﴿ ... فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ .. ﴾،

{آل عمران 146}

وقال تعالى :

﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ ... ﴾.

{النساء 104}

أي لاتَجْبُنُوا.

وقال تعالى :

﴿ وَلاَ تَهِنُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

{آل عمران 139}

وقال تعالى :

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ...﴾

{لقمان 14}

وقال عز وجل :

﴿ ... وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ... ﴾.

{العنكبوت 41}

قال الفيروزابادي :

«الوَهْن والوَهَن محركة: الضعف في العمل. وقيل: الضعف من حيث الخَلق والخُلُق»[1].

---

(1) بصائر ذوي التمييز 5 / 287، وانظر: مفردات القرآن للراغب الاصفهاني ص535، معجم ألفاظ القرآن الكريم 6 / 295..

والوهن المقصود هنا هو مرض عُضال، ووباء عام، بيّنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يُوشِك أن تَدَاعى عليكم الأمم من كلّ أُفُق، كما تداعى الأكَلَةُ إلى قَصْعَتها، قيل: يارسول الله، فمن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: لا، بل أنتم يَوْمئذ كثيرٌ، ولكنكم غُثاءٌ كغثاء السَّيل ، وليَنْزعَنَّ اللّه من صُدُورِ عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ اللّهُ في قلوبكم الوَهْن» فقال قائل: يارسول الله وما الوهن ؟ قال :

«حبُّ الدُّنْيا ، وكراهية الموت».

وفي رواية:

«حبّكم الدُنيا ، وكراهيتكم القتال»[1].

وهكذا يكشف الرسول الحكيم أعراض مَرَض الوهْن الذي يبدأ من الفرد، وينتهي بالمجتمع، هذاالمرض الذي يصيب الأمم والشعوب فيقضي على كيانها، ويهدم وجودها، ويسقط هيبتها، ويمحي أثرها، ويزلزل أركانها، ويحطم دعائمها، فتهوى

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبوداود عن أبي هريرة وثوبان رضي الله عنهما . (سنن أبي داود 426/2، مسند أحمد 359/2، 278/5، الفتح الكبير 438/3).

من عليائها، وكرامتها واستعلائها، الى أن تركع أمام الأمم الأخرى، وتستخذل أمام الشعوب المجاورة، وتصبح لقمة سائغة للطاغين والطامعين فيها، بل يكثر الأكلة حولها، ويجتمعون على اقتسامها والقضاء عليها، وتحديد مواطن النفوذ بينهم كما يجتمع الجياع حول الطعام ليتناولوه، ويأخذوه، ويقتسموه، فلا يرفعوا أيديهم عنه وفي القصعة أثر لوجوده.

هذا المرض بأسبابه وأعراضه يصيب الدول في القديم والحديث، ويؤدي الى سقوطها وانهيارها وهو اليوم مقيم بين المسلمين، ويخيم بكلكله عليهم، فنزل بهم الوهن وكأن رسول الله صلى الله عليه وسم ينظر بعين الغيب الذي يطلعه عليه الوحي، ويصور حال المسلمين، وقد تداعت عليهم الأمم الاستعمارية، والشعوب المعادية، وتكالبت على أرضهم وبلادهم وخيراتهم، وجزأت أوطانهم وديارهم، وسلبت نصيباً كبيراً وعزيزاً من أرضهم ومقدساتهم، وتآمرت - ولاتزال تتآمر - عليهم في كل قطر وجانب، وتحيك لهم المؤامرة تلو الاخرى للاطاحة بهم، وفرض الاستسلام عليهم وضمان الاستذلال لهم، وتنوع عليهم أساليب الاستغلال والابتزازلثرواتم واقتصادهم وتعرض عليهم

الافكار الخبيثة، والمبادئ البراقة، والقيم الدخيلة، والقوانين الوضعية، وتغزوهم فكرياً وسياسياً وثقافياً واقتصادياً في عُقر دارهم، وتتقاسمهم النفوذ ومناطق السيطرة، وتتقاذفهم ذات اليمين وذات اليسار، وتحفر لهم الخنادق ليسقطوا فيها، فيلاقوا حتفهم المحتوم، وترى القطر الواحد يوماً مع الشرق، ويوماً مع الغرب، وتارة يستورد أفكاره وقيمه وموارده وأسلحته من هنا، وتارة من هناك، والمسلمون اليوم في ضياع وتمزق، وتردد واضطراب، لايعرفون ذاتاً لأنفسهم، ولايعلمون هوية لشخصيتهم، ويجهلون السفينة التي تحملهم وهم نائمون عن الرياح التي تتقاذفهم، وقد تكسرت السّواري، وسقطت الراية، وفقدوا الوعي، والاحساس. وهم في بحر لُجِّي، في ظلمات بعضها فوق بعض، اذا أخرجوا أصابعهم أمامهم لا يكادون يَرَوْنها من الحجب الكثيفة، والغيوم الداكنة، والنظارات السوداء التي أحكم العدو ربطها على أعينهم، وشدَّد الخناق فيها على رقابهم، ولكنَّ أعدادهم كثيرة وثرواتهم ضخمة، ومركزهم استراتيجي، وهم ملايين وملايين، ولكنهم غُثاء كغثاء السيل، لاقيمة له، ولايثبت على حال، وتقذف به الامواج الى الحضيض،

ولا يسمع لهم قول، ولايعتد لهم برأي، ولذلك فقدوا هيبتهم، وطمع بهم القريب والبعيد، والقوي والضعيف، وسامحهم الذل والهوان على أيدي عصابات صهيون، وجنود المرتزقة وتسلط العملاء .

ب - حب الدنيا وكراهية الموت :

وقد شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم المرض، وأنه الوهن، ثم شرح أعراضه الظاهرة وأسبابه القريبة والبعيدة، وهي حبُّ **الدنيا**، والتعلق بها، والافتتان بزينتها، والسعي وراءها، والطمع فيها، وقصور الآمال عليها، واعتبارها المبدأ والمنتهى، والظن بالخلود فيها، وحب الاستزادة، من البقاء فيها، وبالتالي كراهية الموت، لأنه يقطع هذه الآمال والأماني، وكأن لسان حالهم يردد سخافات الجاهلية من الدهريين وغيرهم، وهم يقولون :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

{المؤمنون 37}

﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

(الانعام 29)

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَالَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾

(الجاثية 24)

إن المرض واحد، ولكن له وجهان متقابلان، وصفتان متلازمتان، وعَرَضان متحدان، وهما حب الدنيا وكراهية الموت، وهذان المرضان نشيطان ومؤثران، ويتركان الاثار العظيمة، والنتائج الخطيرة المدمرة، ويدفعان إلى أعمال جمة.

فمن آثار حب الدنيا أن تبدأ من الفرد لتصل الى المجتمع، فتصبغه بها، وينتشر الحرص علىٰ جمع المال، والانكباب على الكسب بالطرق المشروعة وغير المشروعة، ويظهر التقاتل والتخاصم، والشح والبخل، والجشع والطمع، واللف والدوران في التعامل، والتحايل والتهرب، والسرقة، والغصب، ثم يعقب ذلك

التخاذل والجبن، والخوف والاضطراب، والقلق الشديد من المستقبل، ويتستر بعض هؤلاء بالدين، فيأخذون منه مايشاؤون، ويدعون مايريدون، ويتمسكون بمايحقق مقاصدهم، ويتناسون مايتعارض معها، ويتغافلون عن عمد عنها.

ومن آثار كراهية الموت أن يَعُبَّ الانسان من طيبات الحياة الدُّنْيا مااستطاع الى ذلك سبيلاً، وألا يُعِدَّ للموت عدته ولايقدم شيئاً أمامه، ويسرف في الملذات، ويسعى لاشباع الشهوات، وينقاد وراء الغرائز، ولو قتل نفسه بنفسه، ثم يهلك ذاته بيده، كالدابة التي تسرف في طعامها، ولاتدري أن حتفها في أكلها.

ويشرح القرآن الكريم هذ المرض بشقيه، مبيناً أثره وخطره وعاقبته، فقال تعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

(التكاثر 1 - 8)

وهذا المرض : حب الدنيا وكراهية الموت، وهو الشائع بين الناس ، يتنافى مع واقع الدنيا وحياة الناس، ويتعارض مع البدهيات، ولايحتاج الى أدلة وبرهان، وهو أشد وضوحاً من الشمس المشرقة في رابعة النهار، والحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، وهي الحياة الأبدية الدائمة الخالدة، وشتان بين هذه وتلك، وأن الخلود في الدنيا لم يكتب لبشر على الاطلاق وأن الموت حقيقة مطلقة، وهذا مايراه الانسان بأم عينيه، ويدركه بأدنى تأمل وتفكير.

جـ . حقيقة الدُنْيا:

وإن حب الدنيا، وكراهية الموت، يعني أن الانسان يجهل حقيقة الدنيا، ويغتر بمظاهرها ويفتن بمغرياتها، ويكتفي بقشورها، وأن صاحبها قصير النظر، كليل البصر، ينظر بين رجليه، ولايستعد لأبعد من ذلك، ولايهيء نفسه لمستقبل أيامه، ولايدخر سلاحه وقوته لوقت الحاجة، لذلك حرص القرآن الكريم أن يكشف للمسلم جقيقة الدنيا، ويميط له اللثام عن مفاتنها، ويضع يده على جوهرها، ليحذره من الاغترار فيها، وذلك في

آيات كثيرة، مبثوثة في سور القرآن، قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾.

[الحديد 20]

وقال تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾.

[آل عمران 14]

وبيَّن القرآن الكريم حقيقة الحياة ، وحذَّر من فتنتها.

فقال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ فَلاَ تَغرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ .

(فاطر 5)

كما قرر القرآن الكريم اشياء كثيرة من زينة الحياة الدنيا، وعددها، ثم دعا الناس الى عدم الوقوف عندها، وطلب منهم تجاوزها الى ماهو خير وأفضل، وأحسن وأدوم، وأثمن وأبقى، كما سبق، فقال تعالى :

﴿ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ .

(الكهف 46)

فالدنيا جميلة، وفيها من المسليات والملاهي الشيءُ الكثيرُ، ولكنَّ ذلك مؤقت وإلى زوال، وأنَّ الحياةَ الحقيقية، والسعادةَ الدائمةَ الحقَّةَ هي في الدار الاخرة، فقال تعالى :

﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الأَخِرَةَ لِهِيَ الحَيَوانُ لَو كَانُو يَعْلَمُونَ ﴾ .

(العنكبوت 64)

ثم حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مفاتن الدنيا، والانشغال بمالها وخيراتها والتنافس فيها، والغفلة عن الله والآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :

«فوالله ماالفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهْلِكَكم كما أهلكتهم»(1).

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قيمة الدنيا، وهوانها عند الله، وانه لاقدر لها اذا قصدت لذاتها، وانما تظهر قيمتها اذا جعلت طريقاً الى الآخرة ومزرعة للأعمال الصالحة، فقال عليه الصلاة والسلام :

«لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضةٍ ماسقى كافرا منها شربة ماءٍ»(2).

---

(1) هذا جزء من حديث رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الانصاري رضي الله عنه مرفوعاً.

(2) هذا الحديث رواه الترمذي وابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه مرفوعاً ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالسُّوق والنَّاس كَنَفَيْهِ (أي عن جانبيه) فمرَّ بجدي أسَكَّ (وهو صغير الأذن) ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال:

«أيكم يحبُّ أن يكون له هذا بدرْهم ؟ فقالوا: مانحِبُّ أنَّه لنا بشيء، ومانَصْنَعُ به؟! قال: أتحبون أنَّه لكم؟ قالوا: واللَّه، لو كان حياً كان عَيْباً، إنَّه أسكُّ، فكيف وهو مَيِّتٌ ! فقال: واللَّه، للدُّنيا أهون على اللَّه من هذا عليكم».[1].

وحذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين من استعباد الدنيا وزينتها لهم، فالعاقل لا يكون عبداً للدرهم والدينار وإلا استحق السخط والغضب، لماروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«تَعسَ عَبْدُ الدِّينار والدِّرْهم، والقطيفة والخميصة، إنْ أُعطِي رَضي، وإن لم يُعطَ لم يَرْضَ»[2].

---

(1) رواه مسلم في اول كتاب الزهد والرقائق.

(2) رواه البخاري في الجهاد ، باب الحراسة، وفي الرقاق، والقطيفة ، ثوب له خمل ، والخميصة ثوب من خزٍ وصوف معلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إنَّ الدنيا حُلْوةٌ خَضِرة، وأن اللَّه مُسْتخلفكم فيها، فينظر كيف تعملونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتقوا النِّساء»[1].

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال: «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال:

إنَّ مما أخاف عليكم من بعدي مايُفتَح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها»[2]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة»[3]

---

(1) رواه مسلم في كتاب الرقاق

(2) رواه البخاري في الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، والجهاد، ومسلم في الزكاة، باب تخوف مايخرج من زهرة الدنيا

(3) رواه البخاري في الرقاق والجهاد، ومسلم في الجهاد.

وهذه الاحاديث وغيرها، تحذير للمسلمين من الفتنة بالمال والدنيا والتعلق فيها، والاغترار بزينتها، ليكون ذلك وقاية لهم من الانغماس فيها، ولكن ذلك لايعني التخلي عن الدنيا، وترك مافيها، واعتبارها نجساً، كما يحلو لأتباع بعض الديانات المحرفة، بل الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الدنيا ميراث وتركة للميت، ينفقها في سبيل الآخرة ويشتري بها الدرجات العليا في الجنة، وهذا ماذكره القرآن الكريم على لسان أهل الجنة، فقال تعالى:

﴿ ... الحَمْدُ للهِ الَّذي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ ﴾،

(الزمر 74)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولاإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لاتكون بما في يديك أوثق مما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصِبت بها أرغب منها لو أنها أُبقِيَت لك»[1].

---

(2) رواه الترمذي، تحفة الأحوذي 7/3.

د - الاستعداد للموت :

وهذه النظرة الحقيقية للدنيا، وعدم التعلق بها، وسيلة تربوية للاعتدال في الفكر والسلوك، حتى يكون المال وغيره في يد المؤمن والعاقل، وليس في قلبه، فلايستأسره، ويسيطر عليه، وانما يستخدمه لنفع العباد والبلاد، ويسخرما في يده من خير، ليكون أمامه يوم الدِّين والجزاء والحساب، وليبقى ذكراً له وعملاً نافعاً، وأجراً دائماً مستمراً بعد وفاته، وأن الادخار والبخل، والاكتناز والشحّ لايعود عليه بشيء، ولن يخلده في الدنيا، وسوف ينقل الى القبر، ويدفن تحت التراب ، ويبقى المال لغيره.

ولذلك يكشف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة ، مبيناً حظ الانسان من ماله، فعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: «ألهاكم التكاثر» قال :

«يقول ابن آدم : مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ماتصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»[1].

---

(1) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق ، ومعنى أمضيت أي أنفذت الصدقة ودفعتها الى من يستحقها ، وأفنيت أي أذهبت وأتلفت ، وأبليت من الابلاء وهو إخلاق الجديد (نزهة المتقين 1/427).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله»[1].

فاذا مات الانسان، وحمل الى القبر فلايبقى معه بعد دفنه الا عمله مرتهناً به، لقوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

{المدثر 38}

ولذلك يستعد العاقل للموت ، ويهيء له الأسباب المحمودة، فإن جاءه الموت كان على خير حاله، دون أن يغفل عن هذه الحقيقة التي تلازم البشرية، وأن الدنيا ليست مقراً، ولامستقراً، ولم يخلد فيها إنسان، والموت حق يقيني، ولذلك يجب على الانسان أن يضع ذلك نصب عينيه، وأن يبادر الى الأعمال الصالحة، وأن يقصر أمله لينجو من التراخي والكسل، ويغتنم

---

(1) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب سكرات الموت ، ومسلم في اوائل كتاب الزهد والرقائق .

الفرص، وهذا ماأرشد إليه رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال:

«أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمَنْكِبيَّ فقال: كنْ في الدُّنيا كأنك غريبٌ، أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: اذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، واذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1]

قال النووي رحمه الله: قالوا في شرح هذا الحديث:

«معناه لاتَرَكْن الى الدنيا، ولاتتخذها وطناً، ولاتحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولاتتعلق منها الا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولاتشتغل فيها بمالا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله التوفيق»[2].

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري في الرقاق (2358/5).

(2) رياض الصالحين مع شرحه نزهة المتقين 419/1، الاربعين النووية، الحديث الاربعون، وروى البيهقي في «شعب الايمان» عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقيل يارسول الله، وماجلاؤها – فقال: «تلاوة القرآن وذكر الموت» وسنده ضعيف (الاحياء 496/1).

هـ - العبرة التاريخية من القرآن الكريم :

وذكر لنا القرآن الكريم عبرة تاريخية واقعية في هذا المجال في التفريط في أحكام الدين، والتعلق بالدنيا، وهي صفة من صفات اليهود الماديين، الذين أنِسُوا للدنيا، وتمسكوا بها، وتمنوا الخلود فيها فاستحقوا الذل والهوان، وجعلهم عبرة لغيرهم :

﴿ ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾

(الحشر 2)

فقال تعالى عنهم :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

(البقرة 96)

وفي ذات الوقت ادَّعَوْا أنهم أحباء الله تعالى، وأنهم يعملون للآخرة، وأن الجنة لهم دون سواهم، فكشف الله

سريرتهم، واختبر ايمانهم، ومَحَّص مُدَّعاهم، فقال تعالى لهم :

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُم أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

(الجمعة 6)

وقال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الأَخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

(البقرة 94)

وظهر كرههم للموت وخوفهم منه، وايثارهم للحياة الدنيا، وتجنبهم لطلب الموت، فقال الله تعالى عنهم :

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

(البقرة 95)

وقال تعالى :

﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

(الجمعة 7)

وفي هذا التوجيه القرآني دعوة للتربية الاسلامية لأن يكون الانسان سوياً، وقوياً ويوازن بين الدنيا وحقيقتها، وبين الآخرة ونعيمها، ويضمن لنفسه العزة والكرامة، ويحقق لأمته النصر والحياة العزيزة، ويغرس في قلبه المناعة والوقاية من الوَهْن، ويطلب الموت لتوهب له الحياة وينزع من فؤاده حب الدنيا، ويضع الموت نصب عينيه ليحاسب نفسَه قبل أن تحاسب، ويلتزم جادة الصواب في فكره وإيمانه، والاعتدال في سلوكه وتصرفاته .

8 - الأعياد الدينية :

وننتقل الى مثال آخر، نقارن فيه المبدأ الاسلامي، مع التطبيق العملي السديد، وماطرأ عليه من تفريط في الاحكام والسلوك نتيجة التقليد الأعمى، وتمزيق الدين، وتشويه معالمه، ومحاولة الهدم الجزئي لشرعه، وسلخ بعض الفروع والتمسك بها مع الاعراض عن غيرها، مع محاولة الترقيع من العادات الاجنبية، ومحاكاة الغربيين، وضياع الذات، والنتائج السيئة لذلك، وهذا المثال عن الأعياد الدينية.

أ- تعريف العيد ومفهومه :

العيد من المعاودة، وهو الموسم المعين، وسمي بذلك لأنه يعود أي يرجع على الناس مرة بعد أخرى، ويعود بعضهم بعضاً بالزيارة واللقاء والاجتماع .

والعيد مناسبة للافراح العامة والخاصة، وتتخذها الأمم والجماعات والدول سنوياً لأهداف معينة، وذكريات خاصة، وغايات مرسومة، حتى أصبحت الأعياد من طبائع الأمم، وعادات الشعوب، ودخلت في عقائد الناس واحتفالاتهم .

والأعياد كثيرة ومتنوعة، وتختلف مناسباتها من أمة إلى أخرى، ومن وطن إلى غيره، ومن عقيدة إلى ثانية، ولكنها لاتخلو منها جماعة في العادة، وتنظمها أنماط متشابهة، وتتخذ اتجاها واحدا في توقف الاعمال، والتخلي عن التكاليف للاستراحة من أعباء الحياة، وهموم الدنيا، وتجديد القوة، واستعادة الهمة والنشاط، وتقوية العزيمة، وترويح النفس، والمشاركة الجماعية، وتبادل البسمة والبهجة والفرحة، وتوثيق الصلات العامة.

وتمارس الأمم والشعوب والأفراد في الأعياد تصرفات خاصة، وأفعالاً كثيرة، وتتخذ تقاليد معروفة، وعادات شائعة، وتؤدي مظاهر مألوفة، ولكن تطور البشرية اليوم، وسهولة الاتصال بين الشعوب، وسرعة المواصلات، واختراع أجهزة البث والاذاعة والتلفاز، وتعدد وسائل الاعلام والنشر، ساعد على نقل الصور المتنوعة من أعياد الشعوب، وسهَّل الاطلاع عليها، ودفع كثيراً من الناس الى المشاركة في أعياد غيرهم، أو على الأقل دفعهم الى تقليدهم بالمظاهر، ومحاكاتهم في الاشكال، وبذلك تطورت الاعياد من اطار وطني أو قومي أو ديني إلى مجال عالمي.

ويتكرر الاحتفال بالأعياد سنوياً، وتقترب مناسبات الأعياد المختلفة من بعضها لتكون أحياناً في زمن واحد باليوم أو بالاسبوع أو بالشهر، ومع ذلك تتفاوت الحقيقة، وتختلف الأهداف والغايات، وتتباعد الوسائل والأعمال والتصرفات، وتتمايزالنتائج.

ومن أشهر الأعياد في العالم العربي والاسلامي عيد الاضحى، وعيد الفطر السعيد، وعيد ميلاد السيد المسيح عليه

الصلاة والسلام وعيد رأس السنة الميلادية، وعيد المولد النبوي الشريف، بالاضافة الى الأعياد الوطنية والقومية الخاصة في نشأتها ومناسباتها، العامة في مظاهرها وأشكالها .

ومع أن الاحتفال بهذه المناسبات متقارب في الزمن، ومتفق في الأصل والمنشأ أحياناً، ولكن الغاية تختلف، والوسيلة أو الاسلوب يتباين ويتباعد تباعد المشرق عن المغرب، وهذا يدعونا للمقارنة والموازنة بين مفهوم العيد في الاسلام، واهدافه ووسائله، وبين الواقع الملموس، والمناظر المشاهدة في حياة المسلمين اليوم، وبين الأعياد عند غير المسلمين.

ب - العيد في الاسلام :

العيد في الاسلام فرع عن التصور الكامل للانسان والحياة والكون، والعيد عند المسلمين مرتبط بالعقيدة والاخلاق، والعبادة والمعاملات، و السلوك، والتصرفات، وهو فرع عن الايمان والتشريع، كما أن العيد وسيلة لتحقيق مقاصد الشريعة العامة، وتأكيد الفروع والأحكام التفصيلية المتنوعة .

فالأعياد الاسلامية طريق لتنظيم علاقة الانسان مع ربه، باعلان العبودية لله تعالى، والثناء عليه بالتكبير والتهليل،

والتقديس، والتعظيم، لذلك شرع في العيد التكبير الذي يردده المسلم عند استقبال العيد، ويتخذه أنشودة يكررها في كل تصرف وحركة:

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لاإله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، والله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله العظيم، وبحمده بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الاحزاب وحده، لاشيء قبله، ولاشيء بعده، ولاإله إلا الله، ولانعبد إلا إياه، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون».

ويرفع المسلمون أصواتهم بالتكبير طوال ليلة عيد الفطر، وخلال خمسة أيام في عيد الاضحى، ويعلنون ذلك في طريقهم الى المسجد، وعقب الصلوات، بل يدخل التكبير في صلاة العيدين، وفي كل ركعة منها، ويدخل في خطبة العيدين أيضاً.

وفي العيد اظهار للشكر والثناء والحمد لله تعالى على نعمته وأفضاله، وعلى توفيقه لأداء الطاعة والعبادة، والعيد هو

يوم الجائزة للصائمين بعد صيام شهر رمضان المبارك ويوم الذكرى الخالدة في عيد الاضحى الذي أتم الله ب. الاسلام وأنزل على رسوله الفرقان، وأعلن أنه رضي لعباده الاسلام ديناً، وأكمله للخلق عقيدة وشريعة .

وفي العيد يؤدي المسلم العبادة لله تعالى في صلاة العيد، كما يسن فيه قيام الليل في الطاعة لله، والتقرب إلى الله، وتلاوة القرآن، وذكر الرحمن، والتضرع إليه بالدعاء، والتذلل له بالخشوع، والأنس بقربه، والطمع بماعنده، والخوف من عقابه.

والعيد في الاسلام – مع كل مافيه من بهجة وفرح وأنس وسعادة وراحة دنيوية فهو يوم المغفرة للذنوب، ويوم البشارة بالفوز بجنات الخلود، لما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«اذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا : اغدوا يامعشر المسلمين الى ربّ كريم، يمنّ بالخير، يُثيب عليه الجزيل، لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم، وأمرتم بصيام النهار فصمتم، وأطعتم

ربِّكم، فاقبضوا جوائزكم، فاذا صلَّوا نادى منادٍ: ألا إن ربكم قد غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى رحالكم، فهو يوم الجائزة ويسمى ذلك اليوم في السَّماء يوم الجائزة»[1].

أي يوم البراءة من الذنوب، والطهارة من العيوب، والنقاء من الأدناس والكروب، وفي عيد الأضحى يتقرب المسلمون إلى ربهم بالأضاحي التي يقدمونها لأهلهم وذويهم، وإلى الفقراء والمحتاجين لتكون فداء لهم يوم القيامة، كما يؤدي المسلمون في عيد الفطر صدقة الفطر لهذه المعاني.

والأعياد الاسلامية وسيلة لتنظيم علاقة المسلم مع نفسه، فيمنحها الراحة، ويعفيها من العمل، ويستروح من مشاغل الحياة، ويدخل على نفسه البهجة والسرور، والمسرة والحبور، ويلتقط المسلم أنفاسه من وعثاء التعب والسفر والعمل، ليسجل مرور سنة ماضية من عمره، وأنه يقترب من أجله، ليستعد إلى لقاء ربّه، وينفض عن كواهله التعلق بالمادة والحياة والمال،

---

(1) رواه الطبراني في الكبير من رواية سعد بن أوس الانصاري عن أبيه رضي الله عنه. (انظر الترغيب والترهيب 153/2).

فلا يلهث وراءها، ولايطمع بالخلود فيها، وجمع الثروة والثراء منها، ليكون فيها على الصورة التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

« نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، قلنا: يارسول الله لو اتخذنا لك وِطاءً، فقال: «مالي وللدنيا، ماأنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحتَ شجرة، ثم راح وتركها »[1].

فالحياة الدنيا دار ممر وعبور يقطعها السائر إلى الدار الآخرة، فكيف وقد حال الحوْلُ، وعاد عليه العيد، كما يُسعد المسلم نفسه بصلته مع الله تعالى، كما سبق، وصلته مع المجتمع كما سيأتي، وهكذا يغير المسلم من نمط حياته وسلوكه، ويبدّل في نظام عمله، ويأخذ العطلة السنوية، ليتوقف قليلاً، ويعطي نفسه حقها، «إنَّ لنفسك عليكَ حقاً».

---

(1) رواه الترمذي، في الزهد، باب ما أنا في الدنيا إلا كراكب، وقال: حديث حسن صحيح.

والأعياد الإسلامية سبيل لتنظيم علاقة المسلم بأخيه المسلم، وتوطيد الروابط معه، ماديا ومعنويا، فمن الناحية المادية يقدم الصدقات، ويذبح الأضاحي، ويخرج صدقة الفطر، ويواسي الفقراء والمساكين بالإعانات المالية، ويمدّ يد المساعدة للمحتاجين، ويتفقد أحوال أهله وعشيرته، وظروف جيرانه وأقاربه، ومعيشة أهل بلده ووطنه، ويطلع عن قرب على مجتمعه، ليكون نافعاً للجميع مع مرضاة الله تعالى الذي أخبره على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله:

«الخلق كلهم عيالُ الله، فأحبُّهم الى الله أنفعُهم لعياله»[1].

ومن الناحية المعنوية يصل المسلم في العيد أرحامه، ويزور أقاربه، ويدخل على جيرانه، ويواسي المحزونين والأرامل واليتامى والمقطوعين، ويعود المرضى، ويقابل الناس بالصفاء والمحبة، والبشر والمسرة، والمودة والأخوة، وكثيراً ما يتصالح المتخاصمون، ويعفو المحسن عن المسيء، ويلتقي الأقارب

---

(1) رواه أبو يعلى والبزار عن أنس رضي الله عنه، ورواه الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.

والأحبة الذين فرقت بينهم أمور الحياة والمعيشة، وكثيراً ما يعود المسافر إلى وطنه وأهله، وتمتد الأيدي بالمصافحة، لتطرح التشاحن والإحن، والبغضاء والقطيعة، وتنطق الألسنة بتهاني العيد، وتباركيه «كل عام وأنتم بخير»، «أعاده الله عليكم بالخير واليمن والبركة»، «عيد سعيد»، ويبش المسلم في وجه أخيه، ويأنس بلقائه وزيارته، وتبتسم الثغور ليحل الفرح والحبور في النفوس والقلوب، وفي البيوت والطرقات.

وفوق كل ذلك ففي الأعياد يتجمل النَّاس بأفخر الثياب، ويأكلون أطيب الطعام، وينفق المرء على أهله بسعة وجود، لذلك حرم الإسلام الصيام في يومي العيد، لأنهما وقت أكل وطعام ولهو، ويلعب الأطفال، ويلهو الكبار في المباح الذي لا يعود على أنفسهم ومجتمعهم وأمتهم بالضرر والفساد والإيذاء، ولابأس من استعمال الدف والغناء المباح، لما روت عائشة رضي الله عنها قالت:

«دخل علينا أبو بكر يوم عيد، وعندنا جاريْتان، (وهما الطفلتان الصغيرتان قبل البلوغ) تذكران يومَ بعاث (أي تُغنِّيان، وتنشدان الأشعار والذكريات عن ذكرى تلك الحروب) يوم قتل

فيه صناديد الأوس والخزرج، فقال أبو بكر: عبادَ اللّه، أمزمور الشيطان؟؟ قالها ثلاثاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر، إنَّ لكل قومٍ عيداً، وإنَّ اليومَ عيدنا»[1].

وبذلك يصبح الغناء المباح في العيد بما لا يخرج عن الآداب الإسلامية.

أما الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يتضمن تلاوة القرآن الذي أنزله اللّه هدى للعالمين، ليخرج الناس من الظلمات الى النور، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوتِ الله تعالى، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ عن عائشة رضي الله عنها (134/6) ورواه البخاري في مناقب الأنصار، ومسلم بألفاظ قريبة. (صحيح مسلم بشرح النووي 182/6).

(2) هذا جزء من حديث صحيح، رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴾.

{الإسراء 9}

ويقول ايضاً:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ... ﴾.

{الحشر 21}.

وفي الاحتفال بالمولد ذكر الله تعالى، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّه ذِكْراً كَثِيراً * وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ وكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾.

{الاحزاب 41 - 43}

وفي الاحتفال بالمولد صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، أي دعاء له، وقد أمرنا الله تعالى بهذا الأمر العميم، وبدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكة قُدُسه، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾

(الأحزاب 56)

كما ورد تكرار الصلاة والسلام عليه في أحاديث كثيرة وصحيحة، منها قوله صلى الله عليه وسلم:

«من صلّى علي واحدةً صلى الله عليه عشراً»[1].

ويتلو ذلك، أو يتخلل الاحتفال، أناشيد دينية، وقصائد مدح للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت ذلك في السنة والسيرة أن شعراء الرسول الله صلى الله عليه وسلم، حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، وغيرهم، كانوا يُنشدون الأشعار

---

(1) هذا الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروى قريباً منه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وانظر فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب «الأذكار» للنووي ص 105، وكتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله سراج الدين.

والمدائح أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقرهم على ذلك، ويدعو لهم بالثبات، وأن رُوحَ القدُس معهم، وفي أثناء الاحتفال تذكر نبذة من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبعض شمائله وخصائصه، وجانب من أخلاقه وهديه، ليتأسى بها المسلم، ويقتدي بها المؤمن، والله سبحانه تعالى يقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الأخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾.

{الأحزاب 21}

كما تلقى في الاحتفال المواعظ الدينية والنصائح التربوية، والتذكير بأحكام الشرع، مع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقد يتم في الاحتفال إطعام الطعام للأقارب والجيران، والأحبة والمساكين.

جـ - مواقف المسلمين من أعيادهم:

هذه أعياد المسلمين واحتفالاتهم في أصلها ومشروعيتها، وفي أهدافها وغاياتها، وفي وسائلها وكيفيتها، وينقسم المسلمون أمامها الى ثلاثة أقسام، قسم يلتزم بذلك فلا يزيد عليه ولا

ينقص، وقسم يفرّط في كثير من جوانبها، ويهمل القيام بأكثر أحكامها وآدابها ويزيد عليها كثيراً من البدع والتقاليد الخارجية، والعادات الشعبية، والتصرفات الفردية، والمظاهر الاجتماعية التي تتنافى مع الأصل والجوهر، والغاية والهدف، ويظهر عليها النفور، وتفتقد الذوق السليم، وتبدو عليها التناقضات والمفارقات.. كما سنرى، والقسم الثالث: يقصر في أعمال العيد وأفعاله، ويترك كلياً تعاليمه وأحكامه ويتمسك بالبدع والقشور، ويحاكي الآخرين في التقاليد.. ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان الخطب، ولكن يصدر ذلك قصداً أو بدون قصد - باسم الدين، ويرتسم ذلك في وعي كثير من الناس، ويبدأ النقاش عن الدين وأحكامه وأفكاره من خلال ذلك الانحراف المرفوض اصلاً من الدين.

المبحث الخامس

الانتماء والالتزام

كثيراً ما يقع الاختلاط بين المباديء الدينية، والمفاهيم الإسلامية، بحيث تؤدي إلى الإفراط أحياناً، والتفريط احياناً اخرى، ويلتبس الأمر على بعض النّاس، فيؤدي إلى المغالاة والغلو في أحكامٍ، والتقصير في أحكام أخرى، وذلك باسم الدين والتدين، والاحتجاج ببعض أحكامه ومبادئه وقيمه.

فمن ذلك مثلا الخلط بين الإفراط والتفريط والتعصب المذموم من جهة، وبين الثبات على الحق، والتضحية في سبيله، والالتزام بالعقيدة والأحكام، والتسامح الديني والتعصب المحمود من جهة أخرى.

لذلك لابد من التنبيه الى البون الشاسع بين الغلو في الدين عقيدة وسلوكاً، وبين الالتزام الصحيح الكامل بأحكام الدين بدون نقص ولا تفريط، فهذا لا يسمى غلواً ولا تطرفاً ولا

تزمتاً ولا عصبية، كما يحلو لأعداء الله أن يصفوا به المتدينين، للنيل منهم، والكيد لهم، والتشويه لسمعتهم، والتشهير بهم؛ ويقولون عنهم: المتطرفين أو الأصوليين، علماً بأن التمسك بأحكام الدين كاملة، والالتزام بها عقيدة وشريعة وسلوكاً، ودعوة ونظاماً وفكراً، هو المنهج الحق، ابتغاء مرضاة الله تعالى، والا وقع الناس بالنقص والتفريط والتقصير، كما سبق وهو المرض المعاكس الخطير.

ويظن بعض الناس أن الاعتدال والوسطية في الإسلام، أو التسامح الديني المقرر في القرآن والسنة والدولة الإسلامية، يدعوان الى التفريط في الدين، والتهاون في الشرع، والمجاملة في العقيدة وارتكاب المحرمات والمعاصي، واللين في الحق، والتساهل في المواقف، ،هذا غير صحيح، فإن الدِّين يطلب من أبنائه التمسك في الأحكام، والثبات على الحق، والتضحية في سبيله، وعدم المساومة في العقيدة والإيمان والأركان، ولكن دون تعصب ممقوت، أو عصبية جاهلية مرذولة.

ولذلك نبين في هذا المبحث موقف الإسلام من التعصب والعصبية، ورأيه في الثبات على الحق، والتضحية في سبيله، وأن العقيدة لا تقبل المساومة ولا المفاوضة ولا التنازل ولا التفريط بجزء منها، وأن الرسول الكريم، وصحابته النجباء ضربوا المثل الكامل في هذا المنهج القويم، وأعطوا الصورة الصحيحة في الانتماء والالتزام ، مع التسامح الديني، والموقف الوسط المعتدل، وتقديم الفداء في الدفاع عن الحق وأهله، والعمل على حمايته ونشره، والسعي لإعلاء شأنه، ورفع رايته، وبناء صرحه الشامخ، دون خبط ولاخلط، ودون مواربة أو التفاف، وهذا ما سنبينه في هذا المبحث.

أولاً - التعصب والعصبية :

1 - تعريف التعصب :

التعصب لغة : الإحاطة والشدُّ من عَصَبَ القوم بالرجل عصباً، من باب ضرب، أحاطوا به لقتال أو حماية، وعَصَبَ

القوم بالنسب أحاطوا به، وعصب الرجل الناقة عصباً شدَّ فخذيها بحبل ليُدِرَّ اللبن، وتعصَّب وعصَّب رأسه بالعصابة أي شدها، وأتى بالعصبية وتقنع بالشيء ورضي به، والعَصَبَة قوم الرجل الذين يتعصبون له، وينصرونه، والعُصْبة جماعة متعصِّبَة متعاضدة، وعَصَبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه، لأنهم عصبوا به أي أحاطوا، والجمع عَصَبات، والعصابة الجماعة من الناس والخيل والطير لا واحد لها [1]

ويؤخذ من هذه المعاني أن التعصب لغة موضوع للعصبية مطلقاً، سواء أكانت حميدة مقبولة، أم كانت تعصباً ذميماً، وعصبية باطلة.

2 - أنواع التعصب :

ونستعرض هنا أنواعاً من التعصب، ونماذج من العصبية، لنبين رأي الإسلام في كل منها، وذلك من أجل

---

(1) انظر، المصباح المنير 2 / 564 مادة عَصَب، المفردات في غريب القرآن ص 336، بصائر ذوي التمييز 4 / 70.

الوصول الى معالجة الظاهرة المرضية التي تسري في المجتمعات البشرية، ويمتد أثرها الى الشباب المسلم، والجيل المؤمن، فتفت في عضده، وتشتت شمله، وتفرق جماعته، وينقسم بسببها المسلمون شيعاً متفرقة، وطوائف مختلفة، وفرقاً متناحرة، وجماعات متنابذة، وكل منها يستند الى طائفة من الأحكام والأدلة، يدعي التمسك بها، ويظن أنه على الحق المطلق، ويطعن في غيره، ويشكك في عقيدته، ويتهم سلوكه، ويعرض بسمعته، وقد يصفه بالكفر أو بالباطل، ويستغل أعداء الدين هذه الخلافات لغرس سمومهم بينها، مطبقين قاعدة المستعمرين «فرق تسد».

وهذا يدعونا لتناول هذا المرض الخبيث، وبيان جذوره الجاهلية، ومفاسده الاجتماعية، وبالتالي لنصل بالشباب المسلم، والجيل المعاصر الى المبدأ الصحيح أن العقيدة واحدة، وأن الحق واحد، وأن رائد المسلم هو التمسك بالحق، وأن يوزن الرجال على ضوء الحق، دون أن يكون تقديس الأشخاص

وتعظيم الرجال فوق الحق والمبدأ، وإلا وقع في شباك الجاهلية من جديد، التي حذر منها القرآن الكريم، والرسول الأمين، فقال تعالى :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

(المائدة 50)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما أوقع اليهود بين الأوس والخزرج :

«اللهَ، اللهَ، أبدعوى الجاهلية، وأنا بينَ أظهرِكم، بعد أن هداكم اللهُ، وكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية واستَنْقذكم من الكفر، وألف بين قلوبكم»[1]

---

(1) - انظر تفسير ابن كثير 1 / 388، تفسير الطبري 4 /30 ومابعدها.

وهذا المرض الخطير، والظاهرة العجيبة تسري بين المسلمين وغير المسلمين، وإن العصبيات الممقوتة تسود العالم تحت شعارات مختلفة، ومبادئ كثيرة، كالجنس والعنصر واللون والدين والقوم واختلاف الأنظمة، وقبل البدء بالكلام نقرر الأمور التالية:

أ - إن العصبية الممقوته.تنشأ عن شعور غريزي بالأنانية والاستئثار الذي يغلب على العقل والتفكير والسمو البشري والكرامة الإنسانية، فهو جنوح وإفراط وتفريط في آن واحد.

ب - لم يُغفل الاسلام أهمية رابطة الدم والجنس والعنصر والقوم والدين، بل أقرها ضمن نطاق الحق والعدل، وبنى عليها أحكاماً شرعية، كما سنوضح ذلك.

جـ - إن التعصب الذي نعتبره مرضاً وينكره الاسلام، ويبرأ منه، ويجب استئصاله، هو التعصب المذموم الذي نحذر المسلم من قبوله أو الوقوع فيه، وإن العصبيات المذمومة القديمة

والحديثة التى تنص عليها بعض الأديان، وتقرها بعض الدول، وتبني عليها أساس وجودها، وبدء عملها، يرفضها الإسلام بشكل جازم، وينأى عن إقرارها، وإن الاسلام حارب التعصب الذميم بكل أنواعه وأشكاله ومظاهره، سواء كان في العقيدة أو الاجتهاد أو المعاملة أو الاجتماع.

د - إن التمسك بالحق والثبات على المبدأ ليس تعصباً مذموماً، بل هو تعصب محبوب ومطلوب، وهو من المبادئ الفاضلة التي يقرها العقل والمنطق، ويجيز الدفاع عنها، والتضحية في سبيلها، وبذل الجهد لنشرها، والسعي لتطبيقها، كما سنفصله فيما بعد.

هـ - إن التحلل من القيم، والمتاجرة بالمبادئ، والتهرب من الواجب، ومخالفة المؤمن لدينه، والخروج عن عقيدته، ليس تسامحاً، بل هو تحلل وميوعة، وضعف واضطراب فكري، وقلق عقلي، ونفاق اجتماعي، وطريق للفساد والرذائل، وتفريط وتقصير، وله المساوئ والنتائج التي ذكرناها سابقاً.

وهذا مابينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه واثلة بن الأسقع قال :

قلت يارسول الله، ماالعصبية، قال :

« أن تُعينَ قومَك على الظُّلم ».[1]

و - ونخلص من هذا إلى بيان التعصب المذموم، والعصبية الجاهلية بأنها تنكب الحق، والإعانة على باطل، وإكراه الآخرين على قبول العقيدة والفكرة التي يحملها الإنسان .

ز - ويدخل في التعصب المذموم أن يغمط الانسان حق غيره ، ويحاول أن يحتقر الآخرين في أشخاصهم ومعتقداتهم وأفكارهم ولوكانت باطلة ، وكان الشخص لايقبلها ولايؤمن بها ، ولايستسيغها العقل، ولكن لايحق له أن يتعصب لمبادئه وأفكاره وينتقص مبادئ غيره وأفكاره.

---

(1) - هذا الحديث رواه أبو داود مرفوعاً .

3 - أنواع التعصب المذموم وموقف الاسلام منها:

ونذكر هنا ثلاثة أنواع للتعصب المذموم، ونبين موقف الاسلام منها:

النوع الأول:

التعصب الذي يرجع الى القبيلة أو الجنس أو اللون أو العرق، وعرف في التاريخ القديم والحديث بأسماء مختلفة، منها:

1- التعصب القبلي :

وهو أقدم أنواع التعصب، وذلك أن المجتمعات القديمة كانت تتكون من قبائل، وكانت كل قبيلة تشكل خلية واحدة، وكتلة متراصة، وكان أبناؤها متضامنين متعاونين، يدافع كل منهم عن أفراد قبيلته، وتثأر القبيلة كلها لأحد عناصرها، واذا وصل الى أسماعهم أن أحد أفراد القبيلة أصابه ضيم، أو

اعتدى عليه آخر، أو تنازع مع ثالث أو تقاتل مع أجنبي، فانهم يَهبُّون على آخرهم، ويقفون مع قريبهم، لينصروه، سواء كان ظالماً أم مظلوماً، ويسرعون لنجدته دون أن يكلفوا أنفسهم السؤال عن القضية أو الأدلة أو معرفة جوهر المسألة، وقبل أن يعرفوا الحق من الباطل، وفي هذا يقول شاعرهم :

لايسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قَالَ برهانا

والإسلام أقر علاقة القرابة بين أفراد العائلة والأسرة والقبيلة، ورتب على هذه العلاقة أحكاماً شرعية، فمنع زواج المحارم، وأقر النفقة بين الأقارب، وشرع الميراث بين العصبات وذوي القربى، وفرض الدِّية على العاقلة، وأباح الدفاع عن العِرض، ورفعه الى مرتبة الشهادة ، وأوجب نصرة الأخ والقريب، وعظّم صلة الرحم، واهتم بالنسب ومنحه مكانة عالية، ومنزلة سامية ولكنَّ الشارع الحكيم بيَّن حدود ذلك، وقيَّده

بالضوابط والقواعد والأحكام التي تحول بين المبدأ وبين التعسف فيه، وبين الاستفادة منه وبين إيقاع الظلم بسببه، وأوضح الغاية من ذلك، وهي إقامة الحق، والتعاون في سبيل الخير والبر، روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أُنْصُرْ أخاكَ ظَالماً أو مَظْلوماً، قالوا يارسولَ اللّه نَنْصُرُه إذا كان مَظْلوماً فكيف نَنْصُرهُ اذا كان ظالماً؟ قال: بمنعه عن ظُلْمه»[1].

وعندما حاول بنو مخزوم التشفع لامرأة منهم في حدٍّ من حدود الله تعالى، غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكر أن تصل علاقة القرابة هذا الأمر، وأن الحق فوق الجميع، وقال لأسامة مستنكراً :

«أتشفع في حَدٍّ من حدود الله تعالى؟!».

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري ، والترمذي وأحمد.

ثم أعلن المبدأ الاسلامي العظيم :

«والله، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها »[1]

وقال تعالى :

﴿ ...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعدْوَانِ ... ﴾.

{المائدة 2}

وقال سراقة بن مالك رضي الله عنه: خَطَبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

«خيركم المدافعُ عن عشيرته مالم يأثم»[2]

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري، والتّرمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنها: وفيه : «إنّما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» (صحيح البخاري 3 / 1282).

(2) هذا الحديث رواه أبو داود. (سنن أبي داود 2/ 625).

وبيّن بالمقابل أن إعانة القوم على الظلم هي العصبية المقوتة، كما سبق.

2 - التعصب القومي :

وهو نسبة إلى القوم الذين تربطهم عوامل اللغة والعرق والأرض والثقافة والتاريخ والآلام والآمال المشتركة والدين، وينسجون حول أنفسهم سياجاً وهمياً للتمييز عن القوميات الأخرى، ويرفعون الشعار القومي لجمع أفراد العرق نحو هدف معين، شريفاً كان أم وضيعاً، ويتخيلون لقوميتهم من المزايا والصفات والقيم مايربو على غيرها، وهذا يدعوهم الى التعالي والتعصب لقوميتهم مع ازدراء بقية القوميات، ويعبر عن ذلك هتلر بشعاره :

«الجرمان فوق الشعوب»

واتخذ هذا الشعار طابعاً سياسياً عند النازية، كما يتجلى التعصب القومي واضحاً في النزعة اليهودية بوصف أنفسهم

«شعب الله المختار» ويلحق بهذا النوع من التعصب مايلي:

3 - التعصب العنصري أو التمييز العنصري:

وهو نوع من التعصب القومي، وذلك بأن يكون العنصر ولون البشرة من بياض وسواد وصفار هو أساس اللقاء بين أفراده، ونبذ أفراد العنصر الآخر، والابتعاد عنهم وقطع العلاقات معهم، والتأفف عن الاجتماع بهم في التعامل وشؤون الحياة، ويخصص لكل من السود أو البيض مرافق خاصة بهم كالمدارس والسيارات والفنادق وغير ذلك.

ويتمثل ذلك في التمييز العنصري في جنوب افريقيا، والتمييز العنصري في الولايات المتحدة، والتمييز العنصري في فلسطين المحتلة، كما يتمثل التمييز القومي في بلغاريا واليونان وقبرص وكثير من بلادم العالم .

وموقف الاسلام من التعصب العنصري، والتعصب القومي يظهر جلياً في الحقائق الثلاث التالية:

الحقيقة الأولى :

إقرار مبدأ المساواة بين أفراد الجنس البشري، وأنهم سواسية في الحقوق والواجبات كأسنان المشط، على اختلاف أجناسهم وألوانهم، ومن خلال ذلك يعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفه من سلمان الفارسي، فيقول:

«سَلْمان منَّا آل البيت»[1]

فالناس جميعاً سواء في نظر الاسلام، وأن أصلهم واحد فالأب واحد وهو آدم، والأم واحدة وهي حواء، والانسان الأبيض لايفضل الأسود والأسمر ببياضه، ولايمتاز عنه بعنصره، فلا قيمة لاختلاف اللون مادامت الحقيقة الانسانية واحدة ، ولا أثر للظواهر مادام الجوهر واحداً، وأن جميع البشر ينحدرون من

---

(1) - هذا الحديث رواه الطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك عن عمرو بن عوف رضي الله عنه.

نفس واحدة، كما قال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... ﴾.

{النساء 1}

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إنَّ اللّه لاينظر إلى صُوَرِكم وأجسادكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»(1)

وفي رواية :

«لاينظر إلى صوركم وأموالكم».

الحقيقة الثانية : ان اختلاف الأجناس والألوان واللغات، آية من آيات الله تعالى، وهي علامة تدل على عظمته وقدرته،

---

(1) - هذا الحديث رواه مسلم (126/16) وابن ماجه (1388/2) والإمام أحمد (285/2، 539) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، (مختصر صحيح مسلم 232/2).

وتوجب التأمل والنظر، وتدعو الى الايمان، قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾.

{الروم 22}

ويسمو الاسلام بهذا الواقع البشري ليدعوه الى التعارف والتعاون والتآلف فيقول عز وجل :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... ﴾.

{الحجرات 13}

الحقيقة الثالثة : التفاضل بين الناس يعتمد على مبدأ التقوى والورع والعبادة والصلة بين الإنسان وربه، أو بين العبد وخالقه، أو بين الإنسان ومايحسن من الأعمال، فلامفاضلة على غير هذا الأساس، ولم يخلق الله شعباً فوق الشعوب ، ولم يميز قوماٍ على غيرهم.

وإن قيمة الإنسان في المجتمع ومكانته عند الله تعالى تنحصر بمايقدمه من عملٍ نافع، وجهد مشكور، وخدمات طيبة، ومن عبادة وإصلاح، قال تعالى :

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

{الحجرات 13}

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أيها الناس، إن ربَّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إنَّ أكرمكم عن الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي، ولالأعجمي على عربي، ولاأحمرٍ على أبيض، ولالأبيض على أحمر فضلٌ إلا بالتقوى، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهدُ منكم الغائب»[1].

---

(1) هذا الحديث رواه البيهقي عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«الخَلقْ كلهم عيالُ اللّه، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله»[1]

ولنسمع - أخي القارئ - إلى هذه القصة التي تبين نوازع النفس، وأثر البيئة من جهة، وأثر التربية الإسلامية من جهة ثانية، اختلف أبو ذر الغفاري (العربي الأصيل) مع بلال (الحبشي العبد) فاحتد أبو ذرٍ، وقال له: ياابـن السوداء، (يعيره بأمه السوداء)، ووصل الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب غضباً شديداً، واستدعى المتنازعين، وقال :

«طفٌ الصاعُ، طفٌ الصاعُ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى، أو بعمل صالح» فوضع أبو ذرٍ خده على الأرض، وقال لبلال: قم فطأ عليه»[2].

---

(1) هذا الحديث رواه أبويعلى في مسنده، والبزار والطبراني عن أنس وابن مسعود رضي الله عنهما ، وسبق بيانه .

(2) روى قريباً من هذا في الشطر الأول من الحديث ، البخاري (20/1) ومسلم (133/11) عن أبي ذر رضي الله عنه.

والقرآن الحكيم عندما يحرِّم أمراً يحرم جميع الوسائل التي تؤدي إليه، سدأ للذرائع، لأن ماأدى إلى الحرام، فهو حرام، كما ينبذ جميع النتائج الناشئة عن الحرام، لأن ما بُني على الباطل فهو باطل، فالإسلام نهى عن العصبية العنصرية، وحرم الالتقاء على أساس العنصر أو القوم أو العرق، وأبطل التفاخر بالأنساب، وإليك الحديثين التاليين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إنَّ اللَّه قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية (الكبر والنخوة) وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليَدَعَنَّ رجالٌ فَخْرَهم بأقوامٍ إنما هو فحم من فحم جهنم، أو ليكون أهون على الله من الجُعلان التي تدفع بأنفها النتن»[1].

---

(1) هذا الحديث رواه أبو داود (624/2) ورواه الترمذي والبيهقي باسناد حسن أيضاً .

وعن أبي عُقبة (وكان مولى من أهل فارس) قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أُحُداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني، وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

«فهَلاَّ قلتَ : خُذها مني وأنا الغلام الأنصاري»[1]

ومر سابقاً حديث واثلة قال: يارسول الله، ماالعصبية؟ قال:

«أن تُعينَ قومَك على الظُّلم»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

«مَنْ نَصَر قومه على غير الحقّ، فهو كالبعير الذي رُدِّيَ ، فهويُنْزَعُ بذَنبه»[3]

---

(1) هذا الحديث رواه أبو داود (2/625).

(2) هذا الحديث رواه أبوداود (2/625) والبيهقي (10/234).

(3) هذا الحديث رواه أبوداود موقوفاً (2/624) ورواه البيهقي مرفوعاً (10/234)

وبيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي الإسلام بالعصبية عامة، والعصبية القومية خاصة فعن جُبير بن مُطْعِم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«ليس منا من دعا إلى عَصَبِيَّة، وليسَ منَّا من قاتل على عَصَبِيَّة، وليس منَّا منْ مات على عَصَبِيَّة»[1]

النوع الثاني: التعصب الديني:

وهو اصطلاح مجازي، لأن الدين الحق، ومبادئ الأديان السماوية الصحيحة لاتدعو الى التعصب الأعمى، ولاتقبل العصبية الباطلة، ومع ذلك فقد ظهر على مسرح التاريخ القديم والحديث، وعلى مرأى العين، ومسمع الأذن، تعصب ديني ممقوت، وكان الدين تكؤةً وسنداً لمعاداة الأديان الأخرى وإعلان الحرب والقتال عليها، وإشهار السيوف على رقاب أهلها، وقطع

---

(1) هذا الحديث رواه أبوداود (2 /625)

المعاملة معهم، وإن الدماء التي سالت - لاتزال مع الأسف الشديد - بسبب التعصب الديني ضد الإسلام والمسلمين خاصة، لاتقل عما حدث بسبب التعصب القومي والعنصري، رغم التسامح المثالي الذي التزمه المسلمون مع غيرهم

وهذا يدعونا إلى بيان موقف الإسلام من الأديان الأخرى، ويحدد هذا الموقف في ثلاثة أمور، وهي :

أولاً - حرية الاعتقاد وعدم الإكراه على الدين:

لأن الدين والعقيدة والايمان محلها القلب الذي لايصل إليه نفوذ أوتأثير مادي، ولهذا قرر القرآن الكريم المبدأ الصريح الكامل في هذا المجال، فقال تعالى :

﴿ لاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ... ﴾

(البقرة 256)

فالدِّين ولو كان حقاً مطلقاً، ويقيناً صادقاً، وحقيقة حتمية وقطعية فلايصح التعصب لها، ولايقبل إكراه الآخرين عليها،

وإجبارهم على اعتناقها، وهذا ماأكده رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وسيرته، وجهر به في أشد الحالات، وأكثرها التباساً بالاكراه، وذلك في مشروعية الجهاد، وأن الحرب المشروعة تبدأ بتخيير الكفار بين الإسلام والجزية والقتال، بل إن الجهاد لم يشرع إلالحماية العقيدة، وضمان حرية الاعتقاد، ورفع الحواجز أمام الأفراد والشعوب، في اختيار دينها، واعتناق قيمها وأفكارها عن رضا واختيار، وذلك بقتال الحكام الذين يمنعون الرعية من الدخول في الإسلام متى اقتنعت به.

ثانياً - أهل الذِّمة، أو أهل الجزية:

وهذا يؤكد الأمر الأول، وهو أن الإسلام أقر حرية الاعتقاد ليس لأبنائه والمنتمين إليه، بل للناس جميعاً، فإذا امتنعوا عن قبول الاسلام، والنطق بشهادة التوحيد، فنعقد معهم العهد والميثاق مادامو يقطنون أراضي الدولة الاسلامية ونعطيهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودمائهم

وعقيدتهم ومقدساتهم، ويتخذون دار الإسلام مقراً لهم وموطناً، ويربطهم بالمسلمين عهد الله ورسوله، وذمة المؤمنين، ولهذا سُمُّوا أهل الذمة، ويلتزمون مقابل الأمن والحماية بدفع مبلغ طفيف رمزي من النقد، يسمى جزية، فسموا أهل الجزية، ويعفى منها الفقير والعاجز وأصحاب الأعذار، وأول خطوة تمت في هذا الخصوص ماعقده رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد وميثاق مع اليهود والنصارى والمشركين في المدينة المنورة بعد الهجرة مباشرة، في الوثيقة الدستورية بين المهاجرين والأنصار وأهل المدينة، وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبدأ الإسلامي الخالد في مضمار التعاون والانصاف والمعاملة معهم بقوله :«لهم مالنا، وعليهم ماعلينا».

ثالثاً - أما الكفار خارج الدولة الإسلامية الذين يريدون المعاهدة والتعاون مع الدولة المسلمة، ويرغبون في التعايش معها بسلام وأمن وطمأنينة، فيعقد معهم إمام المسلمين معاهدة، وتتعامل الدولة المعاهدة مع الدولة الاسلامية بمثابة معاملة

المسلم للذمي في دار الاسلام، قال تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾

{الأنفال 61}

وقـال تعـالى :

﴿ ... إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾.

{التوبة 7}

وقال تعالى :

﴿ ... وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ ... ﴾.

{الأنفال 72}

أما الدول التي ترفض هذا التعاون، وتمنع الدولة الاسلامية من تبليغ دعوة السماء، وتقف في وجه دعاة الحق

والعقيدة، وتحجب النور عن الناس جَوْراً وتسلطاً وتعسفاً واستبداداً، وتترصد بالإسلام والمسلمين الشر، وتضمر لهم العداوة ، وتنوي لهم المكر والخداع، وتستعد للقتال والانقضاض على المسلمين، وتمنع حرية الاعتقاد للناس، فلابدَّ من اعتبارها دولة محاربة ومعادية، تجهز لها الجيوش للحرب والقتال.

ومن خلال الحقائق السابقة نلمس نبذ التعصب الديني البغيض في الاسلام، ولكن هذا لايعني التحلل من مبادئ الشريعة، والخروج عن أحكامها، والتقصير في واجباتها، بحجة التسامح الديني، فكما لانطلب من الكفار أن يتركوا ديانتهم، فالأولى ألا نطلب ذلك من أبناء أمتنا الذين يجب عليهم أن يعضوا على مبادئ الرسالة المحمدية بالنواجذ، وأن يتمسكوا بها، ويعتزوا بتطبيقها، دون أن يصل بهم ذلك الى اضطهاد الآخرين الذين يخالفونهم في الدين، ودون احتقار لمعتقداتهم، أو إيقاع الاذى والنكال بهم، قال تعالى :

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾.

{الانعام 108}

ولذلك فإن الالتزام بمبادئ القرآن الكريم، وأحكام الله تعالى، جزء من العقيدة، وهو التعصب المحمود والمطلوب، والذي يحمد فاعله، ويثاب على عمله، ويثنى على شخصيته ومكانته، وأن ترك حرية الاعتقاد، أو الحرية الدينية للآخرين هو التسامح الدِّيني الذي يقابله الاضطهاد الديني.

ومن هنا نرى صورة من صور التوازن الدقيق في التصور الإسلامي للمسلم بين طرفين.

الطرف الأول :

الاستمساك بحبل الله المتين، والالتزام بالأحكام الشرعية، والمبادئ الاسلامية، والسلوك على طريق الله المستقيم.

الطرف الثاني :

التسامح الديني مع الأديان الأخرى، والتسامح الديني مع أصحابها .

وأضرب مثالاً لذلك أن التسامح الديني مع النصارى هو أن نترك لهم حرية الاعتقاد، وألا نجعل عقيدتهم سبباً لاضطهادهم والازدراء بهم، وسلب الحقوق منهم، وعدم إنصافهم، ممن يعتدي عليهم، وكفالة عجزاهم، وتطبيب مرضاهم، وايقاع الظلم بهم، وهذا لايتنافى مطلقاً مع تمسك المسلم بعقيدته، والتزامه بعبادته، وأداء واجباته، وتطبيق الخلق الإسلامي الرفيع على حياته، أما ادعاء المجاملة في التخلي عن الدين، والمشاركة في الآثام، والتسامح بشرب الخمر، وترك الآداب الاسلامية فهو تحلل ونفاق، وكفر وفجور، وفسق وتقصير وتفريط .

والاسلام الحنيف بيَّن حدود التسامح الديني مع الأديان الأخرى، ونظم قواعد التعامل معهم، فأرشد القرآن الكريم الى

ذلك بقوله تعالى :

﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

{الممتحنة 8}

وقال تعالى :

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَتَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

{البقرة 190}

وقال تعالى :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوْا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.

{الحج 41}

وإذا أردت - أخي المسلم - أن تدرك عظمة الإسلام، وسموا أهدافه، وسعة مبادئه، وتوازن أحكامه، وحسن تطبيقه، فماعليك إلا أن تنظر الى الجهة المقابلة، لتتلمس المعاملة الوحشية التي يلقاها المسلمون مع مخالفيهم في الدين والعقيدة في أرجاء المعمورة، سواء في البلاد العربية أم في غيرها، من التشاد وأثيوبيا وأرتيريا والفلبين وتركيا والهند والصين وبلغاريا واليونان، وسواء في التاريخ القديم عند انتصار الإسبان على لسلمين في الأندلس، وعندما هتك الصليبيون بيت المقدس، كيف عامل الكفار والمشركون محمداً صلى الله عليه وسلم صحبه، وكيف فعل التتار بالمسلمين عند سقوط بغداد، وفي ختلف البلاد الاسلامية.

ونخلص من ذلك الى التنبيه - مرة ثانية - أن التسامح ديني - كما نراه - لايقابل التعصب الديني، وانما يقابل الاضطهاد الديني، وأن الاضطهاد الديني ليس وليد التدين الصحيح، وانما هو وليد التعصب الأعمى، والغيرة الكاذبة على

عقيدة حمقاء، تنطوي على أطماع مادية، وتكذب على اللّه بإهدار الدماء وسفك الأرواح.

النوع الثالث - التعصب المذهبي :

وهو نوع من التعصب الموجود في الحياة، ومنشؤه الاجتهاد واختلاف الآراء، ونشوء المذاهب والطرق، وبالتالي التعصب لمذهب معين، أو لطريقة خاصة.

ونسرع الى القول : إن اختلاف الأئمة والعلماء والسلّف إنما هو اختلاف في الآراء بسبب اجتهاد مشروع، وأن إمام المذهب لايدعي لنفسه العصمة، ولايقبل النكاية والتعريض بالمجتهد الآخر، ويسير على المبدأ التالي : أنه وصل إلى مايراه الحق باجتهاد مأمور به، وأن رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأي مخالفه خطأ يحتمل الصواب.

ونقرر في هذا المضمار - بكل تأكيد وجزم - أن اختلاف السلف الصالح،فيما بينهم واختلاف الفقهاء والأئمة إنما كان

هدفه الوصول الى الحق نتيجة البحث وإعمال الفكر وشحذ الذهن والتفكير في آيات القرآن الكريم وكلام رب العالمين، والأحاديث النبوية وأساليب اللغة العربية، ويسعون لنفض رق التبعية والتقليد عن كواهلهم، وأن أسباب اختلاف الأئمة والفقهاء والمفسرين لم يكن وليد الهوى والتشهي، وإنما تفرضه الطبيعة البشرية، والأساليب اللغوية، ومجريات الأحداث، والنصوص الشرعية.

وتؤكد كتب السيرة والتاريخ والتراجم موقف الأئمة بعضهم من بعض، المتصف بالاحترام المتبادل، والمحبة العارمة، والثقة القوية وحسن الظن مع التقدير اللامتناهي تعظيماً وتبجيلاً، والأمثلة لايحصيها العدّ، ومن أراد الاطلاع فليقرأ سيرة الإمام مالك ومناظراته مع الامام أبي حنيفة، ورسائل مالك الى الليث بن سعد، وموقف الشافعي من مالك، ورأي الشافعي في الإمام أبي حنيفة، والصداقة العميقة، بين الإمام

الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، وبين الإمام الشافعي والإمام محمد بن الحسن الشيباني، رحم الله الجميع[1]

ومن ينكر ذلك، او يتشكك فيه فإنما - يجهل تاريخ هذه الأمة، أو يحمل الحقد والضغينة واللؤم والعداوة لعلمائها، الذين كان الاخلاص رائدهم، والتعبّد للّه هدفهم، ومرضاة الله تعالى مبتغاهم، وطلب العلم، والوصول الى الحق، أسمى أمانيهم.

ومع ذلك فقد ظهر في العصور المتأخرة من تطاول به الأمر إلى الطعن والاستخفاف بمن يخالفه، ووصل به التعصب المذموم إلى عواقب وخيمة، ونتائج مؤسفة، ومعاملة مسفّة، يبرأ منها الاسلام ويبرأ منها أئمة المذاهب أنفسهم .

لقد ظهر - للأسف الشديد - لون من هذا التعصب المقيت وكلٌ منها تدّعي العمل للإسلام.

---

(1) انظر كتابنا «أصول الفقه الاسلامي» الفصل الرابع في أسباب اختلاف الفقهاء ص 57 ومابعدها

بينما تثير الفتن التي تنخر في عظم هذه الأمة، وتفتت من وحدتها، وتضعف من قوتها أمام تيار الكفر والإلحاد، والفساد والمجون، وهو مانراه في الساحة بين السلفية وغيرها، والمذهبية واللامذهبية، والمتصوفة والوهابية، والاختلاف بين الاتجاهات الإسلامية والفكرية المعاصرة.

وموقف الاسلام من هذا واضح وصريح، ويقع على المتصدّين لهذا العمل عبء الاصلاح والاتفاق والتفاهم، ونبذ العصبية الجاهلية.

وقد وردت الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي تحث على الوحدة والقوة والتعاون والتكاتف والتآزر، وخاصة قوله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَتَفَرَّقُوا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ

فَـأَنقَذَكُم مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ﴾.

[آل عمران 103]

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجَسَدِ الواحدِ، اذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجَسَدِ بالسّهرِ والحمى»[1]

ووصف القرآن الكريم سمات المؤمنين العاملين، المخلصين للدين والدعوة بأنهم «رحماء بينهم» وميَّز بين علاقتهم فيما بينهم وموقفهم من أعدائهم فقال تعالى :

---

(1) هذا الحديث رواه مسلم وأحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعاً

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾.

(الفتح 29)

فهذه صفات المؤمنين «رحماء بينهم»، «أشداء على الكفار» فإن انقلبت المعادلة، وانعكست الصفات، وتغيرت المفاهيم ظهر أثر ذلك على العقيدة والإيمان، وعلى الأحكام والسلوك، ويخشى على صاحبها في معاملاته في الدنيا ومصيره في الآخـرة .

وان القضاء على هذا التعصب الجديد الممقوت هو أن نخلص العمل لله تعالى وأن نلتمس العذر للمخالف، لماورد «التمس لأخيك عذراً» وأن نعلم يقيناً أن اختلاف الرأي يجب أن لايؤدي إلى اختلاف القلوب، وتفرق الصفوف، وتناحر الأفراد، وطعن الجماعة، ومد اليد إلى الأعداء لنستعين بهم على أتباع

شريعتنا، ونغفل عن الظالمين، والفاسقين، والمقصرين، والمتربصين بالشر، والمفسدين، وإن الاختلاف الصحيح الذي يهدف به صاحبه إلى الحق لايستلزم كل ذلك، وإن الأوقات المهدرة والأعمال الضائعة، والسعي الدائم لتكريس هذا الوضع السيء لايجدي شيئاً في الدنيا، ولصاحبه الويل والثبور في الآخرة، وليكن رائدها في الاختلاف والنتائج المترتبة عليه ماحصل بين أبي بكر وعمر عند اختلاف الرأي والاجتهاد مع اتحاد القلوب، والالتزام بمقتضيات الشرع، وعدم الغفلة عن سائر احكام الإسلام، وماوقع بين الامام الشافعي والامام محمد بن الحسن، مع اختلاف وجهات النظر الجزئية بينهما، وماكان بين الامام مالك والامام الشافعي مع تباين الآراء... وأن نتّعظ بعبر التاريخ السعيدة منها والسوداء، ونصحح المسار للسير الى الأمام.

وقد تضافرت حجج الشرع والعقل وحوادث التاريخ أن الأمة المتناحرة داخلياً المنقسمة على نفسها، المتقاتلة مع

بعضها، الحاقدة على بعضها، الممزقة في نفسها، وأشخاصها ورجالها وفكرها، لايمكن أن تخطو خطوة إلى الأمام، ولايمكن أن تصمد أمام كوارث الحياة، ولاتقوى أمام الأعداء، وإن وحدة القلوب والنفوس، ووحدة الهدف والآمال والآلام، هي المنطلق الأساسي للإصلاح والتقدم والرقي والحضارة، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾.

{الرعد 11}

ويقول عز وجل :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾.

{الأنفال 53}

هذا هو التعصب المذموم، وأما التمسك بالحق والالتزام به فيعتبر مفخرة للشخص، وتعصباً محموداً، واتماماً لقوة الشخصية وكمالها، وانسجاماً بين الفكر والسلوك، ورجحاناً في العقل للتوافق بين العقيدة والتطبيق، والقول والفعل، بل إن هذا التعصب المحمود يحتاج الى ثبات وتضحية، وهو العنوان التالي الذي نستعين فيه بقبس من السيرة النبوية، وتراجم الصحابة والتابعين.

ثانياً - التضحية في سبيل الدعوة :

إن الدعوة عبء ومسؤولية وتكليف وهذا العبء والتكليف يحتاج الى جهدٍ وجهاد، والى تعب ونصب، وإلى كد وعمل واجتهاد، والى صبر ومصابرة، والى فداء وتضحية ، والى تحمل للأذى والايذاء للوقوف في وجه الباطل وأعوانه.

هذه هي سنة الله في الكون بالنسبة لجميع الأنبياء والمرسلين، والعلماء العاملين، والدعاة المخلصين، والمصلحين المجاهدين، الذين يحملون رسالة الأنبياء والرسل لأن العلماء ورثة الأنبياء.

ولم تكن الدعوة الناجحة - في يومٍ من الأيام - كسلاً وخمولاً، أو تواكلاً وجموداً، أو ذُلاً واستسلاماً، كما أنها ليست مجرد مغْنم في الحياة، أو طريق للتكسب، أو موردٍ للرزق، وليست للمظاهر الخاصة، والزي المعين، والألبسة المخصصة، والشعارات الزائفة والمناصب الرسمية والاجتماعية، كما أنها ليست لتكوين طبقة أو رجال دين، يتاجرون فيها، ويتسترون وراءها، ولكنها تكليف وجهاد، وهذا مافهمه الصحابة، والسلف الصالح، عندما كانوا ينطقون بالشهادتين، مع إدراكهم الكامل بحقهما في الجهد والتضحية المطلوبة أو المخاطر المحتملة.

وعندما تصبح الدعوة بضاعة للتجارة، ويصبح حملها مورداً للرزق، أو كسباً للقوت والعيش، فإنها تباين جوهرها

وروحها، وتفقد سرها وعظمتها، وتخسر هيبتها، واحترامها، وبالتالي فلايتحقق لها النجاح، وتصبح بضاعة مزجاة، وتجارة كاسدة، لأنها تعرض في غير محلها، وبصورة لاتتفق مع مضمونها الحقيقي، ويصبح أهلها عبئاً عليها، بل يقدمون صورة منفرة عنها.

وقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم العبء الثقيل للدعوة في الأيام الأولى من الوحي، عندما نزل عليه الأمر الصريح والآيات القاطعة، والكلمات البينة بقوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَتَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾.

(المدثر 1 - 7)

وقوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾.

(المزمل 1 - 4)

ثم جاء التكليف بشكل أجسم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾.

{المزمل 5}

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾.

{المزمل 7}

ولذلك تعهده رب العالمين بالاعداد الروحي والاستعداد الجسدي، والتهيؤ النفسي، فأمره بقيام الليل، وتلاوة القرآن الكريم للمران على الدعوة وبيّن تعالى الحكمة من قيام الليل، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾.

{المزمل 6}

وشمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ساعديه، وترك الكرى وراءه، ونهض مسرعاً من فراشه وبيته، وتخلى عن زينة الدنيا ومفاتنها، وانطلق في التبليغ بالحكمة والموعظة الحسنة، فلاقى الويلات الكثيرة وتعرض للمخاطر الجسيمة، وناله من الأذى الشيء الكثير، وتوجهت إليه التهم الباطلة، والدعاوى المغرضة، وأصابه الايذاء من مختلف الاصناف، بدءاً من سوء الكلام، وبذاءة اللسان حتى وصل الامر الى التآمر عليه بالقتل ودسّ السم في الطعام بالاضافة الى المعارك التي خاضها، والمغازي التي سار اليها للدفاع عن نفسه ودينه ودعوته وعقيدته، ولحماية دولة الاسلام، ولتأمين نشر الاسلام وتبليغه للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الاعلى والقدوة العملية والأسوة الحسنة لأصحابه وأتباعه ومن سار على نهجه ليقتدوا به ويلتزموا الجادة القويمة التي أمرهم الله تعالى بها، فقال عز وجل :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ... ﴾.

(الأحزاب 21)

ولذلك نعرض نماذج مما لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جد وجهاد، مع مالقيه أصحابه من ألوان العنت والايذاء والتعذيب والاضطهاد والقتل .

والواقع أن أكثر إنسان تحمل الإيذاء في سبيل الدعوة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد لقي شتى انواع الإيذاء المعنوية والمادية التي سطرتها كتب السيرة، والسنة الشريفة، وسجل القرآن الكريم بعضها، وبين العبرة والعظة منها .

فمن الإيذاء المعنوي السخرية والاستهزاء، وذلك لما جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة سخرت منه قريش، واستهزأوا به في مجالسهم، فكان اذا مر عليهم يقولون: هذا

ابن أبي كَبْشَةَ يُكَلَّم من السماء، وهذا غلامٌ عبد المطلب يُكَلَّم من السماء[1] ، مع انهم يعرفون اسمه واصله ونسبه وشرفه، وعقله وخلقه، وكانوا يسمونه بأنفسهم : الصادق الأمين.

ومن الإيذاء المعنوي الذي أثبته القرآن الكريم، ثم ردًّ عليه، أنهم اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون، فقال تعالى :

﴿ وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِلَ عَلَيْهِ الذِكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾.

{الحجر 6}

وقال تعالى :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾.

{الدخان 14}

---

(1) نور اليقين للخضري ص 37.

ثمّ نزل القرآن الكريم يرد هذا الإفتراء، ويواسي رسول الله بقوله تعالى :

﴿مَا أنتَ بِنِعْمَةِ رَبّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾.

{القلم 2}

وأن هذا شأن الكفار مع جميع الرسل، قال تعالى:

﴿ كَذَلِكَ مَا أتَى الّذِينَ مِن قَبْلِهِم مّن رّسُولٍ إلاّ قَالُوا سَاحِرٌ أوْمَجْنُونٌ ﴾.

{الذاريات 52}

ومن الإيذاء المعنوي اتهامه بالسحر والكذب، قال تعالى حاكياً ذلك عنهم :

﴿ وَعَجِبُوا أن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذّابٌ ﴾.

{ص 4}

وقال تعالى حاكياً قول الوليد :

﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾.

{المدثر 24 - 25}

ثم قالوا: إنه شاعر مجنون، قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾.

{الصافات 36}

ونزل القرآن الكريم ليردَّ هذه الإفتراءات الزائفة، ويثبِّت قلب نَبِيِّه الكريم، فقال تعالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَالاَ تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

{الحاقة 38 - 43}

ومن الإيذاء المعنوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا مر بالطريق إلى الكعبة اتجهت إليه أبصار الكفر والحقد، وأطلقوا نظرات المكر والعداوة نحوه كالسَّيْل الجارف، قال تعالى مصوراً ذلك :

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم لَمَّا سَمِعُوا الذِكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾.

(القلم 51 - 52)

وإذا مرَّ صحابته في الطريق قابلهم الكفار بالهمز واللمز، ثم يحركون ألسنتهم كالأفاعي السامّة باللسع والإيذاء، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾.

ثم يردّ القرآن الكريم عليهم بقوله تعالى مباشرة :

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَاكَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

{المطففين 29 - 36}

والأمثلة على الإيذاء المعنوي الذي صبَّه الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة، وكان عليه الصلاة والسلام لا يزيده ذلك إلا صَبْراً في العمل، وإمعاناً في الدعوة، وتمسكاً بالحق حتى يأتي نصر اللّه الذي وعده، وقد جاء النصر العظيم، والفتح المبين، وتحقق وعد الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد.

أما الإيذاء المادي الذي ألحقه الكفار - ظلماً وجوراً وعدواناً - على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب دعوته، فكثير أيضاً، فمن ذلك مارواه عبدالله بن مسعود رضي اله عنه قال: بيْنا النبي صلى الله عليه وسلم ساجد، وحوله ناس من

قريش، جاء عبدالله بن أبي مُعَيْط بسَلَى جَزُور فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

«اللهم عليك الملأ من قريش: أباجهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، فرأيتهم قتلوا يوم بدر، فألقوا في بئر، غير أمية او أبيٌّ تقطعت أوصاله، فلم يُلق في البئر»[1]

وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابنَ عمرو بن العاص: أخبرني بأشدِ يوم صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يُصلي في حجر الكعبة إذ

---

(1) سلى الجزور هي الجلدة التي يكون فيها ولد البهائم، وهي كالمشيمة بالنسبة للآدمي، والجزور كل مذبوح من الإبل، ذكراً كان أم أنثى، والحديث رواه البخاري (3/ 1399) وانظر صحيح البخاري بحاشيته السندي 2 / 208.

أقبلَ عقبةُ بن أبي مُعَيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمَنْكِبَيْهِ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال :

﴿ ... أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ... ﴾.

{غافر 28}[1]

وروى ابن هشام في « السيرة» أن ابن اسحاق قال:

«إنَّ قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك، وعداوتهم، مشوا اليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له، فيما بلغني: ياأباطالب، هذا عُمارة بن الوليد، أنْهَدُ فتى في قريش

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري (3/1399) وانظر صحيح البخاري بحاشيته السندي2/208.

وأجملُه، فخذْه، فلك عقلُه ونَصْره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك، هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، قال ابو طالب: لبئس ماتساومونني..! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله،لايكون أبداً، قال: فحقِبَ الأمر، وحَمِيت الحرب، وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضاً.[1]

وروى الطبري وابن اسحاق أن بعضهم عمد الى قبضة من التراب فنثرها على رأسه، وهو يسير في بعض سكك مكة، وعاد الى بيته والتراب على رأسه، فقامت اليه إحدى بناته تغسل عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها:

«يابُنَيّة، لا تبكي، فإنَّ الله مانعٌ أباك»[2]

---

(1) انظر: صور من حياة الرسول، للأستاذ أمين دويدار ص 150.

(2) السيرة النبوية لابن هشام 1 / 158.

ومن أشد الايذاء مالقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي جهل عمرو بن هشام، المخزومي القرشي الذي قال يوماً: يامعشر قريش، إن محمداً قد أتى ماترون من عيب دينكم، وشتم آلهتكم، وتسفيه أحلامكم، وسبِّ آبائكم، إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رَضَخْت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه الصلاة والسلام، كما كان يغدو إلى صلاته، وقريش في أنديتهم، ينتظرون ماأبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله احتمل أبو جهل الحجر، وأقبل نحوه، حتى اذا دنا منه رجع منْهَزماً منْتَقِعاً لونُه من الفزع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجال من قريش، فقالوا: مالك ياأبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ماقلت لكم، فلما دَنَوْت منه عرض لي فْحلٌ من الإبل، والله مارأيت مثله قط، همَّ بي أن

يأكلني، فلما ذكر ذلك لرسول الله قال :

«ذاك جبريل، ولو دنا لأخذه»[1]

وكان أبو جهل ينهى رسول الله عن الصلاة في البيت، فقال له مرة بعد أن رآه يصلي: ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ رسول الله القولَ له، فقال: أتهددنني، وأنا أكثر أهل الوادي نادياً، فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة العلق :

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .

{العلق 15- 18}[2]

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحاولات القتل والاغتيال عدة مرات، وتآمر عليه كفار قريش لقتله في أكثر

---

(1) نور اليقين ص 39.

(2) نور اليقين ص 39.

من مرة، وطلبوه للقتل من أبي طالب، ثم وقفوا على باب بيته لقتله ليلة الهجرة ليتوزع دمه في القبائل، كما تآمر عليه اليهود في المدينة، وحاولوا قتله، وتجمع الكفار في حروب كثيرة غاشمة وظالمة لقتل محمد صلى الله عليه وسلم والتخلص من دعوته، وأحاطوا به، فجرحوه وكسروا رُباعيته، وانتدبوا المجرمين والمغامرين لقتله عدة مرات، ولكن الله تعالى حماه ونجاه وعصمه، ويكفي أن نذكر بعض هذه المحاولات لنرى فيها موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في الثبات والإيمان والصمود والشجاعة والبطولة والتضحية في سبيل الدعوة، فمن ذلك موقفه في حنين عندما التقى الكفار والمسلمون، وانهزم المسلمون، وبقي رسول الله صلي الله عليه وسلم في وجه الكفار صامداً مقاتلاً بطلاً شجاعاً، صادقاً مع ربه، ومع نفسه، ومع دعوته، ومع أصحابه، وهو ينادي ويقول:

أنا النبيُّ لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وفي معركة أحد انكشف المسلمون بعد انشغالهم بالغنائم، وأحاط الكفار برسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبال والطعن والرماح، حتى ظن الكفار أن محمداً قتل، ورسول الله ثابت ينادي : إليَّ.. إليَّ.. عباد الله، حتى حقق الله النصر لدينه ودعوته ونبيه.

هذه نماذج من صور الإيذاء المادية والمعنوية التي حلت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل خلق الله تعالى، وأكرم بني البشر عند الله تعالى، ليكون قدوة لغيره، وأسوة للدعاة والعلماء وجميع المسلمين في التضحية والصبر في سبيل الدعوة حتى يتحقق النصر، ويأتي الفرج، وقد انتقم الله من هؤلاء المستهزئين والكافرين، وأهلك الظلمة، ونصر رسوله، ووعد النّصر لمن سار على درب محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً - الثبات على الحق:

وفي هذا المجال نذكر صفحة مشرقة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين ثباته على الحق، وأن هذا مكرمة

وفضيلة، ولا تعد إفراطاً ولا تفريطاً، ولا مغالاة ولا تقصيراً، ولا تعصباً ولا عصبية.

فقد جربت قريش جميع صنوف الإيذاء والتنكيل بالرسول وصحبه ودعوته، فباءت بالفشل، وأخفقت في تحقيق هدفها بإنهاء الدعوة، وتشريد الصحابة، وإخماد النور، وزلزلة الإيمان، وصرف الناس عن الاستجابة لدين الله، وشعر المشركون أن الامر على العكس تماماً، فالدعوة في انتشار أكثر، والصحابة في ازدياد مضطرد، والمؤمنون في ثبات كالجبال، ولذلك لجأ الكفار إلى المفاوضات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للمساومة في المبادئ والقيم والعقيدة، مع تقديم التنازلات عن بعض المكاسب، والإغراء بالمناصب والمغريات، لتحصل على مقابلها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزحزحه عن دعوته وعقيدته ومواقفه.

وسارت سياسة المفاوضات على مراحل، وتكررت المحاولات، واختلف القادمون، وتعددت العروض المغرية، وكانت

المساومة والمفاوضة إما مباشرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإما عن طريق عمه أبي طالب الذي كان يدافع عنه ويحميه، ليكلم ابن أخيه، وكان جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الاعلى في الثبات على الحق، وتجديد الدعوة إلى دين الله، وبيان العقيدة الصحيحة، مع الصمود في التبليغ مهما كلفه الثمن، أو توعده الكفار، وهذه بعض الأمثلة من السيرة النبوية، مع بيان الدروس منها.

1- مشى رجالٌ من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: ياأباطالب، إنَّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلل آباء نا، فإمّا أنْ تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنَّك على مثل مانحن عليه فنكفيك، فقال أبو طالب قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماهو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه وانتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله، حتى مشى

سادات قريش مرة ثانية إلى أبي طالب، وقالوا له: إنَّ لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا - والله - لا نصبر على هذا ... حتى تكفه عنا، أوننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم وتهديدُهم، ولم يطب نفساً بتسليم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه، ولا التخلي عنه، لكنه بعث إليه، فقال له: يابن أخي، إنَّ قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق.

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه غيَّر رأيه، وأنه سيخذله ويسلمه للكفار، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

«ياعم، واللهِ لو وضعوا الشمْس في يميني، والقمر في يساري، على أَن أترك هذا الأمر، حتى يظهرَه الله، أوأهلِك فيه، ماتركته».

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل ياابن أخي، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

« اذهب ياابن أخي، فقل ماأحببت، فوالله، لاأسلمك لشئ أبداً »[1] .

وأنشد :

والله لن يَصِلُوا إليك بجَمْعهم

حتى أُوَسَّدَ في التراب دفيناً

إن موقف محمد صلى الله عليه وسلم أمام أعدائه من الكفار موقف صلَب، وشدة في الحق، وجرأة في الدعوة، وإعراض عن الدنيا، وتقبُّل لكل تهديد أوإيذاء أوقتل، ولما رأي أبو طالب هذا الثبات والموقف القوي رجع عن قوله، وأظهر تأييده لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته ونصرته مادام حياً.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام 276/1.

والعجب في هذا الموقف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعتمد على قوة تحميه بعد عمه، ولا دولة تنصره وتمدّه بالعون، وكانت دعوته في أول الطريق، وكان أصحابه لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهِم من إيذاء الكفار، وكفى بالله ناصراً ومؤيداً وحامياً للاعتماد والتوكل عليه والثقة به، إنّه نعم المولى ونعم النصير، وهذا مايعلمه القرآن الكريم للمؤمنين، قال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

{الأنفال 64}

وقال تعالى:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

{التوبة 129}

وقال الله تعالى :

﴿ ... قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

(الزمر 38)

2- ذهب عتبة بن ربيعة، وكان سيِّداً في قريش، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يابن أخي، إنك قد أتَيْتَ قومَك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل ياأبا الوليد أسمع، فقال: إن كنتَ إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريد به مُلْكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئياً (وهو التابع من الجن) تراه، ولا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربَّما غلب التابع على الرجل حتى يداوى

منه، ولما فرغ عُتْبة طلب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستمع الجواب، ليعرف الحق، فتلا عليه الآيات الأولى من سورة السجدة«فصلت»، وعندما وصل إلى قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

{فصلت 13}

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يمسك عن القراءة، خوفاً من هذه الآية، وقام عتبة إلى أصحابه، وقال لهم:« إني سمعت قولاً، والله، ماسمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل، وبين ماهو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصِبْه العربُ فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملْكه ملكُكم، وعزُّه عزكم، وكنتم اسعد الناس به، قالوا : سحرك يأبا الوليد بلسانه، قال:

«هذا رأيي فاصنعوا مابدا لكم»[1]

إن هذا العرض والإغراء لم يوجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الطريق حتى يترفع عنه، أو يتنزه في قبوله، طمعاً بالأحسن، وإنما كان بعد أن ناله الويل، وأصاب أصحابَه الإيذاء، وقتل بعضهم، وتشرد آخرون، وهاجر فريق ثالث إلى الحبشة يبغون الفرار بدينهم، ويطلبون الأمن والأمان والاستقرار لممارسة عباداتهم، والاطمئنان على عقيدتهم، وكانت الظروف السيئة داعيةً لقبول هذا الإغراء، والاستفادة من هذه العروض، لو كان الهدف والقصد من الدعوة هو المال والجاه والسلطان، وقد جاء كل ذلك سهلاً ميسوراً، ومن ثمَّ يرتاح الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من إيذاء الكفار، ولكن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واضحاً، وهدفه كان محدداً محصوراً بالآيات الكريمة من سورة«فصلت» ولما تكرر هذا

---

(1) – السيرة النبوية 313/1.

الإغراء والعرض عليه مرة ثانية من أشراف قريش قال لهم :

«ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالاتِ ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم اللهُ بيني وبينكم»[1]

ولم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتهز هذه الفرصة باسم السياسة والحكمة ليتولى الزعامة، ويستلم السلطان قبل قبول الدعوة وتكوين عناصر المجتمع الإسلامي[2]

وكأن تقديم هذه العروض والإغراءات لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان امتحاناً له، واختباراً لصدقه، وتيقناً من

---

(1) المرجع السابق 316/1.

(2) انظر فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص78 وما بعدها

هدفه ومقصده، وكان جوابه لعتبة أولاً، ولأشراف قريش ثانياً، بياناً لحقيقة الدعوة والرسالة، وأنه لايبغي جاهاً ولامالاً ولا عزاً ولا سلطاناً، وإنما هو بشر مثلهم بعثه الله إليهم، ليدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

ويُعَقِّب الشيخ محمد الغزالي على هذه المساومة بين المال والجاه والسلطان، وبين حقيقة الدعوة، فيقول:« ماذا تصير إليه الحياة «لو أنَّ صخرة من الأرض انخلعت عنها، وصعدت الى دارات الفلك تطلب من الشمس أوأي كوكب آخر أن يقف عن مسيره وإشعاعه، ويُحرم الوجود من ضيائه وحرارته؟!»[1]

وقد تأثر عتبة بن ربيعة بآيات القرآن الكريم في سورة «فصلت»، وأدرك بحسّه وذكائه أبعاد القضية، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس شاعراً ولا ساحراً ولا دجالاً، وأنه ليس من

---

(2) فقه السيرة له ص 113

طلاب المال والمناصب والمراكز، ولامن هواة الملك والسلطان، وأن كلامه ليس ككلام البشر، ولابدً أن تنتشر دعوته. لأنها الحق، وطلب عتبة من عشيرته، إن لم يقفوا معه، أن يتركوه وشأنه، وأن يُخَلُّوا بينه وبين العرب، فإن انتصر فإن عزّه عزةٌ لمكة وقريش، ونصرُه نصرٌ لهم، وإن هزموه ارتاحوا منه، ولكنهم أبوْا ورفضوا، وقد صدق ظن عتبة، وتحقق حدسه، وكان انتصار الدعوة وانتشارها تكريماً لهذه الأمة جمعاء، وكان ذلك بفضل الله تعالى، وثبات رسوله صلى الله عليه وسلم، وثبات أصحابه على الحق والمبدأ، والعقيدة والإيمان.

3- عاود الكفار سيرتهم، وساروا خطوة جديدة في المفاوضة والمساومة على العقيدة، وتقديم التنازلات على حساب دينهم الباطل، وآلهتهم المزعومة، وأصنامهم التي لاتغني شيئاً، وشعاراتهم الفارغة، فقالوا: «يامحمد، هلم فلنَعْبُدْ ماتَعْبُدْ، وتَعْبُد مانَعْبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تَعْبد خيراً

مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظّنا منه، وإن كان مانعبدُ خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظّك منه، فأنزل الله تعالى فيهم، وجواباً على طلبهم، فقال تعالى :

﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَأَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ * وَلاَأَنتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ * وَلاَأَنَا عَابِدٌ مَّاعَبَدتُّمْ * وَلاَأَنتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

[الكافرون 1-6]

أي إن كنتم لاتعبدون الله حقاً وحقيقة، وأنه يستحق العبادة المطلقة، إلا أن أعبدَ ماتعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم، ولاتقبل عبادتكم، ولا تعتبر صحيحة، وهي مجاملة في غير موضعها، وافتراء على الحق، وسخرية بالمعبود، وهذا لا أقبله ولا أرضاه، فلكم دينكم جميعاً، ولي ديني»[1].

---

(1) السيرة النبوية، لابن هشام 1/386.

وكانت هذه السورة الكريمة جواباً حاسماً لطلب الكفار، وإنهاء للمفاوضات التي شرعوا بها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورداً صريحاً للمساومة والإغراء الذي قدّموه، ولذلك انتقل المشركون بعد ذلك إلى التحدي والتعجيز، ثم الحماقة في التفكير، والسفاهة في الرأي، مع التهديد والوعيد والعودة إلى الإيذاء والإضطهاد، والتنكيل بالدعوة وأصحابها.

وكان الجواب في سورة «الكافرون» يتضمن أمرين :

الأول وهو الظاهر والمقصود من السياق، وهو رفض دعوة الكفار لعبادة الاوثان، وأن لهم عبادتهم، وللمؤمنين عبادتهم.

الأمر الثاني أن هذا الجواب يتضمن البراءة من أعمال المشركين، والبراءة من عباداتهم وآلهتهم، مع التوجه بالعبادة لله تعالى، والإخلاص له في ذلك، وتوحيده بالألوهية والربوبية، مع الجزم والتأكيد لعبادة الله تعالى على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وليس بحسب طلب الكفار والمشركين[1]

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير 4 / 560.

وهذه الآيات الكريمة هي منهج الله للمؤمنين في كل زمان ومكان، وأنهم يرفضون كل شريعة باطلة على وجه الأرض، ويرفضون المشاركة في كل عبادة مزيّفه وطقوس براقة، وإن كان الخطاب موجهاً إلى كفار قريش، ولكن العبرة لعموم اللفظ لالخصوص السبب، ولأن دعوة الحق واحدة، والدعاة لها هم ورثة الأنبياء، وأعدا ء الدعوة هم أعدا ء الحق في كل أرض وزمان .

واليوم نرى كثيراً من الدول الاستعمارية الكافرة التي اغتصبت بعض البلاد الإسلامية، ونرى كثيراً من الدول التي تحكمت برقاب الشعوب الإسلامية تحاول إغراء الدعاة والعلماء، وتحاول مساومتهم علي الدين والعقيدة، وتعرض عليهم المناصب والأموال والوظائف، وتقربهم من مراكز السلطة، ليتخلوا عن الدعوة، وتلوّح لهم من بعيد بالتهديد ثم تسعى لبث الفرقة والإنقسام بينهم، ثم توقع بين أتباعهم، وتحرشهم على بعضهم، وقد يقع بعضهم في الشباك، ويسقط آخرون في الامتحان والابتلاء، وتستهوي فريقاً ثالثاً السلطة والمغريات، ولكن الدعاة المخلصين، والعلماء العاملين يرفضون هذا الإغراء، وهذه

المساومات إلا بعد التسليم بأحكام الله وشرعه،لأن العقيدة الصحيحة لاتقبل التنازل، ولا تصح عليها المساومة، ولا يعتريها التساهل، ولا تقبل التدرج في الإيمان، ولاأنصاف الحلول، ولذلك وردت أيات العقيدة صريحة كاملة، واضحة قاطعة، منذ أول نزولها، بينما كان التدرج والتساهل في التشريع والمعاملات، والتكليف والاحكام.

وهكذا فإن الدعوة تحتاج إلى مواقف الرجال لتكون دليلاً على صدقهم في الايمان، وإخلاصهم في السلوك، والتزامهم في الحق، وقد علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته عملياً على هذا المبدأ في الثبات على الحق، وعدم المساومة على الدين والعقيدة، ورفض الإغراء والمساومة، ليسيروا عليه، ويقتدوا به.

ونذكر هنا بعض الامثلة العملية كبرهان واقعي وتاريخي على تحقيق ذلك.

رابعاً - نماذج من رجال العقيدة :

إن النار الشديدة تصهر الخامات لتميز الخبيث من الطيب، وإن الحرارة القوية تمرُّ على التِّبر لتذيب منه الذهب

الخالص، وفي الظلام القاتم تبدو النجوم المتلألئة، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، وفي النكبات تظهر المواهب والقيم الأصيلة، وفي الشدائد تظهر الرجال، وفي المعارك يتميز الأبطال.

وفي التاريخ الاسلامي أمثلة رائعة، ونماذج خالدة، وأعداد لاتحصى من هؤلاء، نشير إلى كوكبة منهم.

ففي معركة أحد التي اتسمت بالمآسي والآلام، والمصائب والأحزان، ظهرت نماذج فذة من أعمال الصحابة في الفداء والحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والتضحية بالأرواح في سبيل الله ودينه، وتمثل هذه النماذج شهباً مُضيئة في حياة الصحابة وجيل القرآن الفريد، الذين تربوا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مدرسة النبوة والوحي، ليكونوا قدوة وأسوة للمؤمنين في كل زمان ومكان، في تمثل العقيدة والالتزام بـها .

فمنهم أبودُجَانةَ، سِماكُ بنُ خَرَشة، أخو بنو ساعدة، الذي كانت له مواقف مشهودة في غزوة أحد، فبعد أن عبّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيش للقتال رفع سيفه، وقال: «من يأخذُ هذا السيفَ بحقِّه؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عليه الصلاة

والسلام عنهم، حتى قام أبو دُجانة إليه، فقال: وما حقُّه يارسول الله؟ قال: أن تضرب به العدوَّ حتى يَنحني، قال: أنا آخذه، يارسول الله، بحقه، فأعطاه إياه، قال ابن هشام: وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلمَ بعصابة له حمراء فاعتصب بها، علم الناسُ أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، ثم جعل يتبختر بين الصفَّين ...، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر:

«إنها لمشْيةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[1]

وقال ابن اسحاق: «فاقتتل الناس حتى حميِت الحرب، وقاتل أبو دُجانة حتى أمعنَ في الناس»[2]، وقال الزبير بن العوام: «وجدت في نفسي ـ حين سألت رسول الله صلى الله

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام 3/ 11-21، زاد المعاد3/195-196 ط دمشق.

(2) السيرة النبوية لابن هشام 3/ 13.

عليه وسلم السيف فمنعنيه، وأعطاه أبادُجانة، وقلت أنا ابن صَفيةَ عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه فسألته إياه قبلَه، فأعطاه إياه وتركني، والله لأنظرنَّ مايصنع، فاتبعته فأخرج عصابةً له حمراء، فعصب بها رأسه، فقال الأنصار: أخرج أبودُجانة عصابة الموت...، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي

ونحن بالسَّفْح لَدى النخيل

أن لاأقومَ الدهر في الكَيُّول (آخرالصفوف)

أضرب بسيف الله والرسول[1]

قال ابن اسحاق: فجعل لايلقي أحداً إلاقتله، وكان في المشركين رجل يتبع جرحى المسلمين فيجهز عليهم، فاقترب منه أبودُجانة، فضربه المشرك، فاتقاه أبودجانة بَدَرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، وكانت هند بنت عتبة مقنعة كالرجل، وتثير حمية المشركين وغضبهم، فرفع أبودجانة سيفه

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام 3/13-14، فقه السيرة للغزالي ص 271.

على مَفْرق رأسها، فولولت، وقال أبو دجانة: فإذا امرأة، فأكرمتُ سيف رسول الله صلى الله عليه و سلم أنْ أضرب به امرأة[1]

ولما أحاط المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم في الجولة الثانية من أحد تترس أبو دُجانة دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقع النَبْل في ظهره، وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النَبْل[2]

ومنهم أنس بن النَّضْر عمُ أَنَسِ بن مالك، الذي ثبت في أحد لما انكشف المسلمون، وانهزم بعضهم، فتقدم إلى القتال، فلقيه سعد بن معاذ، فقال أين ياأباعمر، فقال أنس :واها لريح الجنة ياسعد، إني أجدها دون أحد[3] وانتهى أنس إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار،

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام 14/3

(2) السيرة النبوية ، للأستاذ أبو الحسن الندوي ص 185.

(3) أصل الرواية في الصحيحين، انظر: زاد المعاد 198/3 طبع دار الرسالة، السيرة النبوية للندوي ص 186، وانظر أيضاً زاد المعاد 206/3، وقال سعد: اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين.

وقد ألقوا بأيديهم، فقال لهم : مايجلسكم؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على مامات عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل، قال أنس بن مالك: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة، فما عرفه إلا أخته، عرفته ببَنانه، رضي الله عنه ورحمه الله[1] .

ومنهم سعد بن الربيع أحد النقباء في بيعة العقبة، وأحد من شهد بدراً، ثم شهد أحداً فقاتل رضي الله عنه، واستبسل في المعركة، وتلقي الضربات، وهو ثابت لايبرح مكانه، ولما فرغ الناس لقتلاهم بعد المعركة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رجل ينظر لي مافعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فقام زيد بن ثابت، وقال له: إن رأيته فاقرأه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تجدك؟ فجعل زيد يطوف بين القتلى، فوجده جريحاً، وبه رَمَق، وفيه سبعون ضربة مابين طعنة برمح وضربة

---

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام 3/31، زاد المعاد3/ 206، 209.

بسيف ورمية بسهم، فقال زيد: ياسعدُ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله السلام، وقل له: يارسول الله أجد ريح الجنة، وأبلغ رسول الله: جَزاك الله عنَّا خيرَ ماجزى نبياً عن أمته، وقل لقومي الأنصار: لاعذرَ لكم عند الله، إن خَلِصَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيكم عينٌ تَطْرُفُ، قال: ثم لم أبرح حتى مات، ورجع زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خَبَره، ولما دخلت بنت سعد بن الربيع على أبي بكر، قال: هذه بنت رجل خيرٌ مني: سعد بن الربيع، كان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدراً، واستشهد يوم أحد[1]

ومنهم امرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، فلما نُعوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه،

---

(1) انظر: السيرة النبوية 46/3، السيرة النبوية للندوي ص 188.187 ص 160.

فأشيرلها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة[1]

وهذا غيض من فيض من أعمال صحابة رسول الله في أحد، فقد صدقوا الله في أقوالهم وأفعالهم، وطلبوا الشهادة في سبيله، فحقق لهم أمانيهم، ورزقهم الشهادة وكتبهم في عليين، كما شهد لهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن هذه النماذج الفذة التي ظهرت في أحد لم تكن إلا أمثلة مضيئة لرجل العقيدة الذي تربى على منهج القرآن، وتأسس بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سبق إلى ذلك شهداءُ بدْر، والمهاجرون إلى الحبشة مرتين، والمهاجرون إلى المدينة، وقد تركوا وطنهم وديارهم وأموالهم وأهلهم في سبيل دينهم وعقيدتهم، وامتثال أوامر الله تعالى وتوجيه نبيِّهم صلى الله عليه وسلم، كما ثبت المسلمون في مكة قبل الهجرة على الإيذاء والاضطهاد والتعذيب بسبب إسلامهم فثبتوا على الحق والتعين، وكانوا كالجبال الراسيات، منهم بلال بن رباح الحبشي، وعمار

---

(1) انظر: السيرة النبيوية لابن هشام 3 /651 السيرة النبيوية للندوي ص 191.

ابن ياسر وأمه وأبوه، وخباب بن الأرت، كما ثبت الصحابة فيما بعد، وقدموا الأمثلة الخالدة في الثبات والاستشهاد في سبيل الله والثبات على الإيمان والعقيدة، كخبيب بن عدي، وعبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب ومعظم الصحابة في مجال الدعوة والسلم، وفي مجال القتال والجهاد.

وإن هذه التربية الإسلامية القويمة، ومبدأ التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تقتصر على جيل الصحابة فحسب، بل امتدت إلى التابعين ومن بعدهم من المسلمين، والأمثلة أكثر من أن تحصى، ومن ينس مواقف سعيد بن جبير، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية وغيرهم، ولايزال الدعاة والعلماء والمخلصون حتى اليوم، وجيلاً بعد جيل، مثلاً أعلى في الفداء والتضحية والايثار وحب الموت وطلب الشهادة، وتقديم الأموال والأرواح صافية نقية خالصة لربها في سبيل الله، وتبليغ دعوته، والدفاع عن دينه، والثبات على الحق، ولو كان دونه خرق القتاد، مصداقاً لقول الله تعالى

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾.

[محمد 31]

ونصل في النتيجة أن الاعتدال في التدين، والتسامح الديني، ووجوب الانتماء العقائدي، والالتزام السلوكي أمور مطلوبة شرعاً، ومقررة عقلاً، وأنها تتميز عن المنهيات والمحرمات في التطرف الديني، والإفراط والتفريط، والمغالاة والتقصير، ويجب عدم الخلط بين المطلوب والممنوع، والفضيلة والرذيلة، والصالح والطالح، والخير والشر، والنافع والضار، ليكون الإنسان في المنهج السليم، والسلوك القويم، والموقف المعتدل، وهو موضوع المبحث التالي.

المبحث السادس

الاقتصاد في التدين

تعريف الاقتصاد:

الاقتصاد لغة : هو التوسط والاعتدال، والرشد والاستقامة، والعدل والتيسير، من قصد في الأمر قصداً واقتصد اقتصاداً توسط، والمُقْتصِد المعتدل، قال تعالى :

﴿ ... فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ... ﴾ .

{لقمان 32}

أي معتدل لاينحرف نحو الافراط ولانحو التفريط، وقال تعالى :

﴿ ... مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

{المائدة 66}

أي أمة معتدلة، تلتزم الحد الوسط، ويقال : هو على قصد أي رُشد من أمره، والقصد: اتيان الشيء، تقول: قصدته،

وقصدت له، وقصدت إليه بمعنى، والقصد العدل، والقصد استقامة الطريق، واقتصد في أمره استقام، ومنه قوله تعالى:

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ...﴾ .

[النحل 9]

أي على الله الهداية إلى الطريق المستقيم، والسفر القاصد: هو الميسر الذي لامشقة فيه، قال تعالى :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ ...﴾ .

[التوبة 42]

واستعمل الاقتصاد في التدين بهذه المعاني اللغوية نفسها، قال الفيومي: «قصد في الأمر قصداً، توسّط وطلب الأسدّ، ولم يجاوز الحد»[1]، ورضي بالتوسط، فالقصد والاقتصاد هو الاعتدال في الدِّين، والتوسط في أحكامه. والسلوك فيها مسلكاً

---

(1) المصباح المنير 2 / 692، مادة قصد ، وانظر : القاموس المحيط 327/1، مختار الصحاح ص 536، معجم ألفاظ القرآن الكريم 47/5.

وسطاً بين المغالاة والتقصير، أو بين الإفراط والتفريط، والقصد في النفقة أو الاقتصاد في النفقة هو التوسط بين الإسراف والتقتير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :

« ماخاب من استخار، ولاندم من استشار، ولاعال من اقتصد »[1].

فالاقتصاد في التدين :

هو الاعتدال والاتزان والاستقامة والتوسط في جميع أمور الدين، بدون غلو ولامغالاة، وبدون تقصير أو إهمال.

قال الراغب الأصبَهاني: «والاقتصاد على ضربين، أحدهما : محمودٌ على الاطلاق، وذلك فيما له طرفان : إفراط وتفريط، كالجود، فإنه بين الإسراف والبخل، وكالشجاعة فإنها بين التهوُّر والجُبْن، ونحو ذلك، وعلى هذا قوله تعالى :

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ... ﴾.

[لقمان 19]

---

(1) – هذا الحديث رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً، واسناد ضعيف ، وعال: افتقر، والشطر الاخير من الحديث رواه الامام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه (1/447).

وإلى هذا النحو من الاقتصاد أشار بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾.

{الفرقان 67}

والثاني: يكنى به عما يتردد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم، كالواقع بين العدل والجور، والقريب والبعيد»[1].

بواعث الاقتصاد في التدين :

إن الاقتصاد في الدين جاء به الشرع الحنيف أصلاً، ويؤيده العقل، ويتفق مع الفطرة البشرية، والواقع الانساني.

فالإسلام لم يأت بالإيمان والعقيدة فحسب، ولم ينحصر في الغيبيات وماوراء الطبيعة والكون، وإنما جاء لينظم علاقة

(1) المفردات في غريب القرآن الكريم ص 404، وانظر : بصائر ذوي التمييز 272/4، وأفرد العلامة النووي باباً بعنوان «الاقتصاد في الطاعة» (نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي 165/1).

الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وجاء هذا التنظيم عدلاً وسطاً، لاافراط فيه ولاتفريط، فأقام الإسلام التوازن بين الروح والجسد والعقل، وشرع الأحكام لإقامة التوازن بين الدنيا والآخرة، فقال تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴾.

(القصص 77)

وهذا ماعلّمه الله تعالى للمؤمنين المتقين في دعائهم، فقال تعالى :

﴿ ... رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

(البقرة 201 - 202)

وهذا مابينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

«ليس خيركم من ترك آخرته لدُنياه، ولاخيركم من تَرَكَ دُنياه لآخرته»[1].

---

(1) رواه الديلمي وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وسبق كاملاً ص 31.

ولذلك حرم الإسلام الرهبانية، كما سبق، لأنها انقطاع عن الحياة الدنيا، وتعطيل لمنافعها وقتل للغرائز البشرية، وكبت لها، وانحراف عن وظيفة الانسان في الكون، استخلافاً وعمارة وبناءً وعبودية لله تعالى.

والإسلام حقق التوازن بين غرائز الإنسان المختلفة، ووجه ميوله وعواطفه الوجهة الصحيحة، التي تحفظ الفرد وتخدم المجتمع، والأمة، وأقام التوازن بين الفرد والمجتمع، بتوطيد العلاقة السديدة بين المواطن والدولة، وعرّف كلا منهما حقه ليقف عنده، ولايخرج عنه، وبيّن لكل منهما واجبه ليؤديه، فلا يخرج الفرد على الدولة والمجتمع بالعبث والفساد، والاجرام والتحكم والاحتكار، والتلاعب بمقدرات الأمة وقوت أفرادها، ولاتتطاول الدولة على الفرد فتسلبه حقوقه الطبيعية والانسانية، وتفرض عليه الظلم والطغيان والاستعباد والتسلط لتجعل منه آلة صماء، أو حيواناً أبكم، لايهتم إلابطعامه وشرابه، وشهواته، أو عضواً عاطلاً أو متكاسلاً، أو خاملاً، أو متواكلاً أو سلبياً.

وقد اختار الله هذه الأمة لتكون وسطاً بين الأمم، ولتكون عادلة في سلوكها، شاهدة على غيرها، حاملة لآخر

رسالة رضيها الله تعالى لعباده، وأنزلها من السماء إلى الأرض، فقال تعالى :

﴿ ... اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ... ﴾ .

{المائدة 3}

وبيَّن تعالى هذا المنهج الإسلامي الوسط بنصوص واضحة، ومجالات مختلفة، وأحكام كثيرة، وآيات متعددة، ثم حدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم معالم هذا المنهج عقيدة وشريعة ديناً ونظاماً، فهماً وبياناً، تطبيقاً وسلوكاً، وترك أمته على محجَّة بيضاء، ليلها كنهارها، لايزيغُ عنها إلا هالك في المغالاة أو التقصير، وأن طريق النجاة والفوز هو بالوسط والاعتدال والاقتصاد في جميع الأمور. قال تعالى:

﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى ﴾ .

{طه 1 - 2}

وقال عليه الصلاة والسلام :

«إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غَلَبه فسدِّدُوا وقارِبوا، وبشِّروا، واستَعِينوا بالغَدْوة والرَّوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلْجة».

وفي رواية:

«وقارِبُوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وشَيءٌ مِن الدُّلجَة ، القَصْدَ القصْدَ تَبْلُغُوا»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«هَلَك المُتَنَطِّعُون» قالها ثلاثاً[2].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«أمراً بين أمرين: وخَيْرُ الأمورِ أوْساطُها»[3].

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً (23/1) في باب الايمان ، باب الدين يسر، وبدأ الباب بحديث معلق (بدون سند) في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة» والرواية الثانية في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (2373/5)، وشرح النووي ألفاظ الحديث فقال: «قوله: «إلا غلبه» أي غلبه الدين، وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه، والغدوة سير أول النهار والروحة آخر النهار، والدُلجة آخر الليل، وهذه استعارة، وتمثيل، ومعناه: استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة، ولاتسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الاوقات، ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل المقصود بغير تعب» (نزهة المتقين شرح رياض الصالحين 168/1).

(2) هذا الحديث رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه، وسبق .

(3) هذا جزء من حديث رواه البيهقي (273/3) وأوله «أمراً بين أمرين».

وفي رواية :

«خَيْرُ الأمورِ أوْسَطها »[1].

وفي رواية :

«خيْر الأعمال أوْسَطُها »[2]،

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي سنشير إلى بعضها فيما بعد، وسبق بعضها الآخر.

وهذا الاقتصاد والاعتدال والاتزان والوسط والاستقامة في الأمور هو مايتفق مع العقل السليم، وهو مادعا إليه العقلاء والحكماء والمصلحون في أقوالهم وأشعارهم ونصائحهم[3].

قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها

نجاةٌ ولاتَرْكَب ذَلولاً ولاصَعْباً

---

(1) رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول، وأخرجه ابن جرير في التفسير والبيهقي (كشف الخفا 469/1).

(2) رواه الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً بلاسند..

(3) انظر: تفسير القرطبي 95/4، الترغيب والترهيب 128/4.

وقال شاعر آخر :

حبُّ التّناهي غَـلَطُ

خيرُ الأمورِ الوَسَطُ

وقال شاعر ثالث :

لاتَذْهبنَّ في الأمور فَرَطاً

لا تسألن، إن سألتَ، شططاً

«وكن من النّاس جمعياً وسطاً»

وقال الحكماء: «خير الأمور الوَسَط، وشر الأمور الشَطَط»

وأثنى الشاعر العربي الحكيم زهير بن أبي سُلمى على قوم فـقـال :

هُمُو وسطٌ يرضى الأنام بحكمهم

اذا طرقت إحدى الليالي بمعظَم

وأثنى شاعر آخر فقال:

أنـتـم أوسـطُ حَـيٍّ علِـمـوا

لصغير الأمر أو إحدى الكُبَر

لذلك كان الوسط والاعتدال والاقتصاد في الأمور كلها محموداً بين الناس لتجافيه عن الغلو والتقصير، والافراط والتفريط، والتعنت والارتخاء والتشدد والتواكل[1].

أما اتفاق منهج الاقتصاد والاعتدال مع الفطرة البشرية فإن الواقع الإنساني يؤيد ذلك ويكشفه للعيان، وأنه أمر محسوس وملموس، فالإنسان ضعيف في ذاته، وخلق من ضعف، وجسمه بُنْية ضعيفة، فكان الاقتصاد والاعتدال متفقاً مع هذه الفطرة والطبيعة، وشرع الله تعالى لعباده من الأحكام ما يتفق مع فطرتهم، وهو العالم بهم، والخالق لأجسادهم:

﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾

{الملك 14}

وقد يحس كثير من الناس بالقوة والنشاط، والهمة العالية لتحمل الأعباء، ولكن هذه القوة والهمّة آنيّة، ويجب ألا يَغْتَرَّ بها

---

(1) روى أبو يعلى بسند ثقات عن وهب بن منبّه قال: «إنّ لكل شيئ طرفين ووسطاً، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليك بالأوسط من الأشياء» (كشف الخفا 1/470).

الإنسان العاقل، لأنها سرعان ماتزول، ثم تتَبدَّل الحال إلى حالة أخرى لأقل مرض، وأصغر عارض من عوارض الحياة، فالإنسان يولد ضعيفاً، وفي أشد صور الضعف والعجز عن شؤون نفسه، ثم يقوى ويشتد، ثم يضعف ويذبل، ثم يزوي، وفي أثناء القوة يتعرض كثيراً لمرض يضعفه، أو لَهمٍّ يقلقه، أولعمل يشغله، لذا كان التشدد والتعنت، والمغالاة والغلو، لايتحملها الإنسان، ولئن صبر عليها آناً فآناً، فإنه ينوء بالإرهاق، ثم يحاول التفلت منها والهروب، وهذا ماحدث مع الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عندما استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بصوم الوصالِ أثناء شبابه، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد الرجاء والمساومة، وأنه يطيق الكثيرالكثير، أذِن له بصوم يوم، وإفطار يوم، ولمّا تقدّم به السنُّ، ندم وقال:

«ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

---

(1) رواه البخاري ومسلم، وسبق بيانه.

كما سبق، بل حذَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم سلفاً، فيما يرويه عبد الله نفسه قال: قال لي رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

«ياعبد الله، لاتكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[1].

ويكفي الاقتصاد والاعتدال من المحاسن والمزايا أنه يجنب المرء مساوئ الغلو، ومساوئ التقصير، وينجي صاحبه من نتائج الغلو والتقصير وأضرارهما وأخطارهما التي تصل أحياناً -كما سبق - إلى الكفر والشرك، والهلاك والدمار، في الدنيا والآخرة.

وإن الغلو في الدين، والتقصير في أحكامه، مرضان خطيران، وينشآن عن أمراض نفسية، وينبعثان من مصادر خبيثة، كما سبق تفصيلها، ولذا بيَّن الإسلام هذه الأمراض، وكشف عن عوارضها، وأن الشيطان وراءها، وتتقوى من أعداء الله والدِّين، فحذَّر الإسلام منها للوقاية والابتعاد عنها، ثم وصف

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري (387/1).

الدواء الناجح لها، ورسم الخطة السديدة، وحدد المنهج القويم، ليبقى المسلم معافى في عقيدته وعباداته، ومعاملاته وسلوكه، ويسير على الصراط المستقيم الذي شرعه رب العالمين من أحكام تتحملها النفوس، ولا تسأم من صعوبتها، أو ترهق من أدائها، أو تعجز عن تنفيذها، وهي في ذات الوقت تسعى لسدّ منافذ الشر، ودرء باب الفتن، والحد من الإسراف في الملذات، وعدم الانغماس في الشهوات، ليبقى الإنسان سوياً في جميع شؤونه، فلا يقطع علاقته مع ربه في لحظة من اللحظات، ويحافظ على صلته السويّة بالمجتمع، ولا يسيء إليها، فيشعر بالغربة في وطنه وأهله، ويحكم علاقته مع نفسه، فلا يقسو عليها، أو يفرط في حقوقها، أو يُحْرِمُها ما أحله الله تعالى من الطيبات، فتكبو به في منتصف الطريق، وهذا ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

«إنَّ لربّك عليك حقاً، وإنَّ لزوجك عليك حقاً، وإنَّ لنفسك عليك حقاً، فاعط كل ذي حقٍ حقه»[1]

---

(1) هذا جزء من حديث رواه مسلم، وروى معناه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً (387/1)، وسبق في احدى روايات حديث عبد الله بن عمرو الذي ذكرناه بطوله سابقاً، (نزهة المتقين 171/1).

دعائم الاقتصاد والاعتدال في التدين:

إن منهج الإسلام في الاقتصاد والاعتدال هو المنهج الوسط الذي شرعه الله تعالى، وأقام له الدعائم المتينة، والأسس السليمة، والأحكام الرشيدة، في مختلف الجوانب، ونشير إلى بعضها:

1 - الاقتصاد في الاعتقاد[1]:

جاءت العقيدة الاسلامية وسطاً عدلا بين الأديان والشرائع، وجعل الله الأمة الإسلامية أمة وسطاً، واختارها على غيرها، لتكون أمة عادلة في سلوكها، شاهدة على غيرها، حاملة لآخر رسالات ربّها، فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... ﴾.

{البقرة 143}

---

(1) ألف حجة الإسلام محمد محمد الغزالي (505 هـ) كتاباً في الدين والعقيدة بهذا العنوان، والكتاب مطبوع وجيد.

والأمة الوسط هي الأمة المعتدلة التي تلزم الوسط والتوسط، فلا تميل الى طرف دون طرف، ولا تأخذ جانباً من الدين أو العقيدة، وتهمل جانباً آخر، ولذا كانت العقيدة الإسلامية صريحة في الإيمان بالله تعالى رباً لا شريك له، وأنه لا يشبهه شيء من خلقه، وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وأنه الغني عن كل شيء، فلا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وهذه العقيدة تقوم على البساطة بشهادة التوحيد، لا إله إلا الله، إلهٌ واحدٌ، «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفواً أَحَدٌ» مع الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، دون تفريق بينهم:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

(البقرة 285)

وقال تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

{البقرة 136}

فالمسلم يعتقد، ويؤمن ويصدق، ويحترم جميع الأنبياء والرسل، مع أنهم ماضون في أعماق التاريخ، ومعظمهم لا أتباع لهم اليوم، وانقرضت أديانهم، أو تحرفت وابتعدت عن الخط الإلهي الحق، وبعضهم لهم اتباع وأنصار، وبقيت بعض كتبهم وعقائدهم، وكثيراً ما يكون اتباع هؤلاء في الصف المعادي للإسلام والمسلمين، وقد يكونوا في بعض الأوقات اشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين، وقد يدفعهم الحقد والعداوة، والتزمت والتعصب الى التآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واغتيال نبي الرحمة، وإجهاض الدعوة في مهدها، أو الاعتداء على ديار المسلمين وبلادهم ومعتقداتهم ومقدساتهم،

وقد يتحالفون مع المشركين والوثنين والملحدين في سبيل القضاء على الإسلام والمسلمين، والتاريخ خير شاهد على ذلك، ومع كل هذا نؤمن بأنبيائهم ورسلهم وكتبهم،-ولا نفرق بين أحد من الرسل، مع الاحترام الكامل، والاعتقاد الجازم بتوفر جميع صفات النبوة والأنبياء بهم، من العصمة والتبليغ والأمانة.. وهذا لا يتنافى مع الاعتقاد بأنهم متفاضلون، بأدلة عقلية ومنطقية وواقعية، وللنصوص الشرعية في تفضيل بعضهم على بعض، وأن فيهم أولي العزم، والثبات والتضحية، والعمل الدائب، والجهاد والدعوة، قال تعالى:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ... ﴾.

(البقرة 253)

وقال تعالى :

﴿ ... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ .

(الإسراء 55)

كما يعتقد المسلم حقاً بالحياة الآخرة مع الحياة الدنيا، وأنه لا انفصال بينهما، ولا تناقض في العمل لهما، مع وجوب السعي لكل منهما، وعدم الانقطع لواحدة دون الأخرى، كما سبق، فلا رهبانية في الإسلام، ولا تَبَتُّل في الدين، ولا مادية بحتة في الشريعة، مع التسليم بالقضاء والقدر بالمفهوم الشرعي الصحيح الوارد في القرآن الكريم والسنة الشريفة، والاعتقاد الجازم بالبعث والنشور، والحساب العادل أمام أحكم الحاكمين، والثواب للمحسنين والعقاب للمسيئين، والجنة للمؤمنين، والنار للكفار والمشركين.

2 - التيسير في التكاليف والأحكام :

فمن دعائم الاقتصاد والاعتدال في الإسلام التيسير في التكليف، واليسر في الأحكام، والتخفيف من الأعمال، وذلك بنصوص شرعية صريحة، لا تحتاج الى تفسير أو تأويل، قال تعالى:

﴿ ... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴾،

{البقرة 185}

وقال تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ .

{النساء 28}

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، فقال :

« إنَّ هذا الدِّينَ يُسرٌ »[1].

وثبت في السنة النبوية أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما خُيِّر بين أمرين (من الأحكام والتكاليف والأعمال) إلا اختار ايسرهما، ما لم يكن إثماً»[2].

وعندما انفعل بعض الصحابة في حادثة، وتشددوا فيها، بين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الدين والتكليف،

---

(1) هذا طرف من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. (صحيح البخاري 23/1)

(2) هذا طرف من حديث رواه البخاري (1306/3) ومسلم (83/15) بلفظ «إلا أخذه» عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

فقال عليه الصلاة والسلام :

«إنَّما بُعِثتُم مُيَسِّرين، ولم تُبعَثوا مُعَسِّرين»[1].

أي من شأنكم أن تبتعدوا عن التعسير لما جاء به شرعكم من اليسر، وقال عليه الصلاة والسلام :

«يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تنفِّروا»[2] .

وجاء التكليف الإلهي في الأحكام بحسب الطاقة البشرية، بالنص الصريح، فقال تعالى :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ... ﴾.

{البقرة 286}

وقال تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ... ﴾ ،

{التغابن 16}

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (89/1) ورواه الترمذي ايضاً عنه.

(2) هذا الحديث رواه البخاري (38/1) ومسلم في الجهاد والسير باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، عن أنس رضي الله عنه .

وعلم الله تعالى الدعاء للمؤمنين بقوله تعالى :

﴿ ... رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَطَاقَةَ لَنَا بِهِ ... ﴾.

{البقرة 286}

كما وصف القرآن الكريم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها لرفع الإصر، فقال تعالى :

﴿ ... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾.

{الأعراف 157}

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«عليكم من الأعمال ما تطيقونَ»

وفي رواية: «خذُوا من الأعمال ما تطيقون».

وفي رواية : «خذوا من العبادة ما تطيقون، فإن ألله لا يسأم حتى تسأموا»[1].

---

(1) هذا الحديث في الرواية الأولى والثانية رواه البخاري (695/2) ومسلم عن عائشة رضي الله عنها (73/5، 74) والرواية الثالثة رواها الطبراني عن أبي أمامة .

3 - رفع الحرج والمشقة في التكليف والأحكام، فمن دعائم الاقتصاد في التدين أن الله تعالى رفع الحرج والمشقة في التشريع، وأن الكلفة والمشقة الموجودة في العبادات والأحكام هي مشقة معتادة، وجرت عادة الناس على احتمالها والاستمرار عليها، وتدخل في طاقة المكلف، وهذه المشقة المعتادة نفسها ليست مقصودة لذاتها من المشرع، وإنما القصد منه تحقيق المصالح المترتبة عليها، ودرء المفاسد المتوقعة منها، للحفاظ على مقاصد الشريعة الضرورية والحاجية والتحسينية، وأن المكلف يتحمل هذه المشقة المعتادة كما يتحمل المريض الدواء المر من أجل الشفاء، فالمقصود في الصوم مثلا تهذيب النفس وتربية الروح وتعويد المرء على الصبر، والإحساس بآلام الفقراء وحاجاتهم، إلى غير ذلك من الحكم والفوائد، وليس المقصود منه إيلام النفس بالجوع والعطش، وكذلك الصلاة والزكاة والحج والجهاد وغيرها، ويجب على المكلف أن يتحرى مقاصد الشريعة في التكليف، ولا يصح له أن يقصد مجرد المشقات التي فيها، ومن فعل ذلك ظاناً زيادة الأجر والتقرب فقد أخطأ ولا أجر له، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أرادت التقرب إلى

الله تعالى، ونذرت أن تحجَّ ماشية، «مُرْها فلتَرْكب، فإن الله غنيٌّ عن مشيها»[1].

ومثلها قصة أبي اسرائيل التي مرت سابقاً، هذا ما أراده الله تعالى في آيات كثيرة في كتابه الكريم، وامتن به على المؤمنين، فقال تعالى:

﴿ ... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ﴾.

[الحج 78]

وقال تعالى :

﴿ ... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَل عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ... ﴾.

[المائدة 6]

لذلك قرر العلماء بأن الحرج مرفوع على المكلف باتفاق، وأن الشارع لم يقصد في التكليف إلى الشاق والإعنات، وأن

---

(1) هذا الحديث رواه أبو داود بروايات كثيرة عن ابن عباس رضي الله عنه وعن غيره (210/2 وما بعدها).

الاجماع على عدم وقوعه وجوداً في التكليف، وأن الشريعة موضوعة بقصد الرفق والتيسير[1].

4 – فتح الرخص، واتماماً للتيسير في الدين، واليسر في الأحكام، والتكليف بقدر الطاقة، ورفع الحرج والمشقة، شرع الإسلام الرخص، وفتح أبوابها في جميع الأحكام تقريباً، في العقيدة والعبادات والمعاملات والسلوك، فرخص بالنطق بكلمة الكفر عند الإكراه، وأباح أكل الميتة وشرب الخمر للضرورة، وشرع التيمم والمسح على الجبيرة والمسح على الخفين، والصلاة قاعداً ونائماً، وقصر الصلاة وجمعها في السفر، وأباح الإفطار في رمضان للمريض والمسافر والمرضع والحامل، كما رخص في بيع المعدوم للضرورة في الاستصناع والسلَّم وغيرهما، ورغَّب رسول اله صلى الله عليه وسلم بالأخذ بالرخصة، فقال عليه الصلاة والسلام :

«إنَّ اللّه يحبّ أن تُوتى رُخصُه، كما يحبُّ أن تؤتى عزائمه»[2].

---

(1) انظر الموافقات للشاطبي 2/86، 96.

(2) رواه البيهقي وغيره.

والحكمة من التيسير ورفع الحرج وفتح باب الرخص هو التخفيف عن العباد، والاقتصاد في التدين، والاعتدال في الأحكام، والتوازن في المصالح، والرغبة في استمرار المكلف بالسير على منهج الله تعالى، والصراط المستقيم، وألا يتطرق إليه انقطاع في الطريق، أو بغض للشرع والعبادة، أو كراهية للتكاليف، وألا تشغله التكاليف والواجبات الدينية عن الأعمال الدنيوية والواجبات الخاصة في نفسه وأهله ومجتمعه،[1] وغير ذلك من نتائج الإفراط والتفريط التي مرت سابقاً

5 - المداومة على العمل وإن قلّ: وتأكيداً لإقامة الاعتدال في التدين، والتوازن بين المصالح، وتقديراً للواقع الإنساني والضعف البشري، وحرصاً على متابعة التدين، والاستمرار فيه، والسير على منهج الله تعالى، والتزاماً بالتكاليف بقدْر الطاقة ومقدار الجهد، فقد طلب المشرع القليل من التكاليف والعبادات والأحكام والالتزامات بشرط المداومة عليها، والمواظبة على أدائها، والاستمرار في تنفيذها.

---

(1) انظر: الموافقات للشاطبي 1 / 233.

وفضَّل الإسلام العمل القليل المستمر على الإفراط والتشدد والتعنت الذي يُردي صاحبه في منتصف الطريق، فلا يصل الى غايتة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إنَّ المنبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»[1]،

وقال أيضاً :

« خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإنَّ الله لا يملُّ حتى تملُّوا، وكان أحبَّ الدين اليه مادامَ صاحبهُ عليه».

وفي رواية :

«وإنَّ أحبَّ الأعمال الى الله ما دووم عليه، وإنْ قلَّ»[2]،

قال النووي رحمه الله تعالى: «ومعنى لا يَمَلُّ اللّه» لا ينقطع ثوابه عنكم، وجزاء أعمالكم، ويعاملكم معاملة المالِّ حتى تملوا فتتركوا، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوامَ عليه ليدومَ ثوابه لكم، وفضله عليكم»[3].

---

(1) هذا الحديث رواه البزار عن جابر، وروى بعضه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه وسبق شرحه

(2) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

(3) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي 166/1.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها، وعندها امرأة، فقال :

«من هذه؟ فقلت امرأة لا تنام، تصلي، قال: عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا، وكان أحب الدين اليه ماداوم عليه صاحبه»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد، وحبل ممدود بيت ساريتين، فقال :

«ما هذا؟ قالوا: لزينب، تصلي، فإذا كَسلتَ أو فترت، أمسكت به، فقال: حُلوه، ليصل أحدكم نَشاطه، فإذا كسِل أ وفتر قعد»[2].

قال النووي: «كسِلت بكسر السين وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق، والأمر بالاقبال عليها بنشاط، وأنه إذا فتر فليقعد حتى يذهب الفتور..»[3].

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم.

(2) هذا الحديث رواه البخاري (386/1) ومسلم (72/5) وهذا لفظ مسلم.

(3) شرح النووي على صحيح مسلم (73/5).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إذا نَعَسَ أحدكم، وهو يصلي، فليرقُد حتى يذهبَ عنه النومُ، فإنَّ أحدكم إذا صَلَّى، وهو ناعسٌ، لا يدري لعله يَسْتَغفِرُ فيسبَّ نفسَه»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه (أي استغلق ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس) فلم يدر ما يقول، فليضجع»[2].

وهذا تأكيد في جميع الحالات والأعمال تطبيقاً للقاعدة والحكمة والمثل «قليل دائم خير من كثير منقطع»، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «أراد عثمان بن مظعون أن يتَبَتَّلَ (أي ينقطع عن النساء وترك الزواج) فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أجاز ذلك له لاختصينا»[3].

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري (87/1) ومسلم (74/5) وهذا لفظ البخاري.

(2) هذا الحديث رواه مسلم بلفظه (74/5)، ورواه بمعناه البخاري (87/1) عن أنس رضي الله عنه.

(3) هذا الحديث رواه بهذا اللفظ الامام أحمد (175/1) ورواه بلفظ قريب منه البخاري (1952/5) ومسلم (176/9) والدارمي (133/2).

(من الخصاء، وهو قطع الخصيتين اللتين بهما قوام النسل، أو تعطيلهما عن العمل).

6 - الاقتصاد في السلوك والمعاملات :

إن أكثر الأمثلة التي ذكرناها سابقاً كانت في الاقتصاد في العقيدة، والاعتدال في العبادات، ولكن المشرع الحكيم، والشريعة الحنيفية السمحاء لم تقتصر على تطبيق مبدأ الاقتصاد والاعتدال فيما سبق، ولكنها ارشدت الى هذا المبدأ السليم في جميع المجالات، وفي مختلف جوانب الحياة العملية، سواء كانت في الآداب والأخلاق والسلوك الاجتماعي، أم كانت في العادات والمباحات، أم كانت في نطاق الأسرة والأحوال الشخصية، أم كانت في دائرة المعاملات المالية والعلاقات الدولية، وفي القضاء والعدل، وغير ذلك مما يظهر باستقراء الأحكام الشرعية، وكتب الفقه الإسلامي، ونراها مبثوثة في مختلف فروع الدين، ونذكر هنا طرفاً منها، لنبين دعوة الشريعة الى الاعتدال، دون إفراط ولا تفريط.

1- فمن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الاختيال في الثياب، والتكبر بها، ونهى عن إسدال الثياب الطويلة والاختيال فيها أمام الناس، فقد أخرج البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الشهرتين :

«أن يلبس الثيابَ الحسنة التي ينظر اليه فيها، أو الدنية الرثة، التي ينظر إليه فيها»[1].

وتأكد هذا المبدأ في اللباس الشرعي المعتدل، فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«ثلاثة لايكلِّمهم الله يوم القيامة، ولاينظر اليهم، ولايزكيهم، ولهم عذاب أليم».

قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مِرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يارسول الله؟ قال :

«المُسبل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

---

(1) هذا الحديث أخرجه البيهقي (273/3) عن كنانة بن نعيم مرفوعاً.

وفي رواية :

«المسبل ازاره»[1].

قال النووي : «يعني المسبل ازاره وثوبه أسفل من الكعبين للخيلاء»[2]، كما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثياب البلية والرديئة، وأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد، وغير ذلك مما بينه علماء الحديث والفقه في باب اللباس.

2 - الاقتصاد في الطعام والشراب : ندب الشرع الحكيم الى الاعتدال في الطعام والشراب، وأمر بعدم الإسراف فيهما، فقال تعالى :

﴿ ...وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَتُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

{الاعراف 31}

---

(1) هذا الحديث رواه مسلم (114/2) وأصحاب السنن الأربعة ، وروى أبو داوود أيضاً (378/2) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن سليم: «واياك واسبال الإزار، فانها من المخيلة ، وان الله لايحب المخيلة» وروى ابو داود أيضاً ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من جرَّ ثوبة خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة»، ورواه أحمد وأصحاب السنن ، وروى مسلم أيضاً: «من جرَّ إزاره ، لايريد بذلك الا المخيلة فان الله لاينظر اليه» الفتح الكبير (183/3).

(2) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي 1091/2.

والإسراف مجاوزة الحد، سواء كان بالزيادة والاعتداء، أم كان بتحريم الحلال، وقد حرَّم الله الإسراف في الطعام والشراب زيادة ومغالاة، وسَرَفاً ومَخِيلَةً، وحرم الإسراف بمنع الطيبات وتحريم الحلال، ولذلك عقَّب الله تعالى بعد هذه الآية مباشرة بقوله تعالى :

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...﴾.

{الاعراف 32}

وقال علماء التفسير : إن هذه الآية وكلوا واشربوا ولاتسرفوا جمعت الطبَّ كلَّه [1]، وهذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« كُلُوا واشربوا، والبسوا وتصدَّقُوا من غير مَخيلة ولاسَرَف، فإنَّ اللَّهَ يحبُّ أن يرى نعمته على عبده » [2]

(1) انظر محاسن التأويل 7/2663، في ظلال القرآن 3/504.

(2) هذا الحديث رواه أحمد ، وأخرج نحوه النسائي وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً (الفتح الكبير 2/321).

وهذا المبدأ يؤيده كل ذي عَقْل أو فكر، وكل حكيم أو مصلح، ويتفق مع الواقع والفطرة، ويراعي مشاعر النَّاس، ويحقق المصالح الكاملة في الحياة والمجتمع ، ويدفع عن صاحبه كل مضرة أو مفسدة .

3- الاقتصاد في العادات والمباحات : أمر الله تعالى بالاعتدال في العادات والتصرفات الخاصة، التي تظهر أمام المجتمع، وأمر بالاقتصاد حتى في المباحات لكيلا تشغل عن الواجبات، أو تكون سبباً ووسيلة الى الحرام، نفسياً واجتماعياً ومسلكياً، قال تعالى :

﴿ وَاقصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ... ﴾

{لقمان 19}

فأمر القرآن الكريم التوسط في المشي، والاعتدال في الصوت لأنهما من كمال الأدب، ومحاسن الأخلاق. كما نهى القرآن الكريم في الآية قبلها مباشرة عن الاختيال في المشي، أو التعالي والتكبر على الناس[1].

---

(1) انظر محاسن التأويل 4802/13، في ظلال القرآن 486/6.

فقال عز وجل :

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَتَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

{لقمان 18}

وتأكد هذا الأدب الإسلامي بغض الصوت واعتداله حتى في العبادة والصلاة وقراءة القرآن، وعند مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، أو زيارته بعد وفاته، فقال تعالى :

﴿ ... وَلاَتَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَتُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾

{الإسراء 110}

وقال تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَتَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَتَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَتَشْعُرُونَ ﴾

{الحجرات 2}

ثم أثنى الله تعالى على من يغضّ صوته، فقال عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(الحجرات 3)

4 - الاقتصاد في العواطف والميول : إنَّ الله تعالى أمر بالاعتدال في العواطف والميول، لأنها كثيراً ماتكون جيّاشة، وتتحرك لانفعالات سريعة وآنية، فتدفع صاحبها للإفراط والغلو بحسن نية، ويتورط في متاهات عديدة، ثم يصحو لنفسه فيندم على ماصدر منه بعد فوات الأوان، ويعضّ أصابعه بدون جدوى، ويضطر للتراجع والاعتذار أمام نفسه، وتجاه ربه، وإلى غيره، فجاء الشرع ناصحاً ومرشداً، ومعلماً ومربياً وداعياً للاعتدال والاتزان في السير وراء العواطف والميول، كالفرح، والحزن، والحب، والكره، والضحك، والبكاء، والغضب، والشجاعة، والتهور، والجبن، والإقدام، والكرم، والبخل والشح ....، وغير ذلك من الأمور الفطرية، والمشاعر الوجدانية، والأحاسيس الجبلية، فالفرح والمسرات أمر طبيعي، ولكنه قد يؤدي الى البطر،

والحزن على المصائب والمآسي قد تدفع الى الأوهام والأمراض. فأرشد القرآن الكريم الى الاعتدال في الأمرين، فقال تعالى :

﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَتَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

(الحديد 23)

والمقصود التخفيف من شدة الحزن، وعدم البطر، والزهو بالرزق والنعمة، وحذّر القرآن الكريم أن تكون العداوة سبباً للظلم والحيف عند المخاصمة والقضاء، فقال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَيَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

(المائدة 8)

وإن حصل خلاف بين الناس فيجب ألايندفعوا الى العداوة والبغضاء والقطيعة، وحرم الإسلام الهجْر فوق ثلاثة أيام، كما يجب ألا يحملهم الحب والصداقة والمودة الى الوقوع في

المحظورات والمحرمات والتساهل في العورات .... وفي ذلك ورد الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك يوماً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما،»[1].

قال العجلوني - معقباً على الحديث - «وفي معناه قول بعضهم: لايكن حُبُّك كلفاً، ولابغضك تلفا ، وأخرج الخرائطي عن الحسن ؛ تَنَقُّوا الإخوان والأصحاب والمجالس ، وأحبوا هو ناً، وابغضوا هوناً، فقد أفرط أقوامٌ في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا، وإن رأيت دون أخيك ستراً فلاتكشفه ....، وماأحسن ماأخرجه الرافعي عن أبي اسحاق

---

(1) هذا الحديث رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الأوسط والكبير عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم، ورواه الدارقطني وابن عدي والبيهقي عن علي موقوفاً، والبخاري في الادب المفرد، ورمز السيوطي لحسنه، ولعله لاعتضاده. (انظر كشف الخفا 54/1، مجمع الزوائد 88/8).

السبيعي من أنه قال: كان علي بن أبي طالب يذاكر أصحابه وجلساءه في حسن الأدب بقوله:

وكُنْ مَعْدِناً للخيرِ، واصفح عن الأذى

فإنك راءٍ ماعملت وسامعُ

وأحْبِبْ إذا أحببْتَ حباً مقارباً

فإنك لاتدري متى أنت نازعٌ

وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً

فإنك لاتدري متى الحب راجعُ[1]

5- الاقتصاد في المهر:

وفي اطار الزواج ودفع المهر للمرأة رغَّب الاسلام بالمنهج الوسط، والاعتدال في الأمر ، ونهى عن التغالي والإفراط في مقدار المهر ، كما حرم التفريط في إلغاء المهر والتلاعب فيه

---

(1) كشف الخفا، له 54/1، ويقول الشاطبي في الموافقات (76/2): «فالأوصاف التي طبع عليها الانسان ... لايطلب برفعها، ولابازالة ماغرز في الجبلة منها، فإنه تكليف مالايطاق ... ولكن يطلب قهر النفس عن الجنوح الى مالايحل، وارسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل».

واللجوء الى نكاح الشِّغار المحرم، وندَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعادات الجاهلية التي كان يسلكها الأولياء في الزواج باليتامى بدون مهر طمعاً بمالهن وجمالهن دون أن يُقْسطوا لهن كأمثالهن، فعن عروة بن الزبير أنه سأل السيدة عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا ماطَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ... ﴾

{النساء 3}

قالت: يا ابن أختي، هي اليتيمة تكون في حجر وليها فتشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها، فيعطيها مثل مايعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن، إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا أعلى سنتهن من الصداق»[1].

واليوم يقوم كثير من الأولياء بالاستيلاء على مهر البنات، ويضعوا يدهم عليه حياء وكرهاً وتهديداً ومساومة لحرمانهن من

---

(1) رواه النسائي وغيره .

مهورهن، وكأن المرأة سلعة للبيع والشراء في مقابل المهر الذي يقتنصه العصبات من الرجال.

ومرَّ معنا سابقاً نهيُ الرسول صلى الله عليه وسلم - من جانب آخر - عن التغالي في المهور وسبق حديث عمر رضي الله عنه : «لاتغالوا في المهور»[1].

وبين عليه الصلاة والسلام أن أكثر النساء بَرَكة أقلهن مهوراً، وقال :

«خير النكاح أيسره»[2].

وكما أن سلب المرأة مهرها ظلم وأي ظلم، فكذلك التغالي في المهور، فانه ظلم وطغيان، ولايخفى هذا الأمر على أحد، ومايجره، من ويلات ومساوئ ومصائب وديون ومتاعب على الزوجين والأفراد والمجتمع والأسر، وكثيراً مايقصد التفاخر والخيلاء والنفاق الاجتماعي في التغالي وملابس العروس وحفلات الزفاف ومايتعلق بذلك.

---

(1) سبق بيان ذلك في المبحث الأول عن الغلو والمغالاة.

(2) هذا الحديث، رواه أبو داود عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً.

6 - الاقتصاد في النفقة والانفاق :

ويأتي الاقتصاد والاعتدال في الانفاق في رأس القائمة، وقد اقتصر العلم الحديث على هذا الجانب من التوجيه، وأفرده بالدراسة والبحث، وصار علماً قائماً بذاته، واذا أطلق الاقتصاد والاعتدال لم يفهم إلا هذا، وانصرف إليه لانه يتعلق بكل فرد، ويحدد سياسته الخاصة، في الانفاق.

فالاقتصاد في النفقة، والاعتدال في الدفع والإعطاء، بدون إسراف ولاتبذير، وبدون بذخ ولاتقتير، وبدون إفراط ولاتفريط هو مايدعو اليه الاسلام، ويؤيده العقل والمنطق، ويتفق مع الواقع والحياة، ويسعى نحوه الحكماء وذوو الألباب، وينادي به المصلحون والوعاظ، والناصحون، ويحقق الانسجام بين متطلبات الحاضر والمستقبل، ولذلك جاء ذكره في مواطن كثيرة من القرآن الكريم. فقال تعالى :

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾.

{الإسراء 29}

قال الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسير هذه الآية:
« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ » أي لاتمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق تقدم، بمنزلة المشدودة يده الى عنقه، الذي لايقدر على الأخذ بها والإعطاء، ولاتبسطها كل البسط أي بالتبذير والسرف، قال ابن كثير : اي لاتسرف في الانفاق، فتعطي غير طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد أي تبقى ملوماً يلومك الفقراء والقرابة، محسوراً اي نادماً من الحسرة، أو منقطعاً بك لاشيء عندك من حسرة السفر اذا بلغ به الجهد، وأثر فيه ... ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلاشيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهي الدّابة التي عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً »[1] .

ووصف القرآن الكريم عباد الله المتقين، الذين يسيرون على منهج رب العالمين، ويطبقون أحكامه وشرعه، ويبتغون مرضاته في الدنيا والآخرة، وسماهم «عباد الرحمن» فقال تعالى عنهم:

---

(1) محاسن التأويل 3923/10.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾

{الفرقان 67}

«أي لم يجاوزوا الحد في الإنفاق، ولم يضيقوا على أنفسهم وأهليهم، ومايعروهم بخلاً ولؤماً بل كانوا بين ذلك متوسطين، وخير الأمور أوسطها، قال الزمخشري: وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وبمثله أمر الله تعالى (في الآية السابقة)، وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله دعليه وسلم قال:

« من فقه الرجل رِفقه في معيشته »[1].

وأخرج أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماعال من اقتصد »[2]

وروى البزار عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ماأحسن القصد في الغنى، وماأحسن القصد في الفقر، وماأحسن القصد في العبادة»[3].

---

(1) مسند الامام أحمد 5 / 194.

(2) مسند الإمام أحمد 1 / 447.

(3) محاسن التأويل 12 / 4590.

وأمر القرآن الكريم بالاعتدال والاقتصاد في الانفاق ودفع الزكاة من المال، ونهى عن الاسراف في آية واحدة فقال تعالى :

﴿ ... كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾

{الانعام 141}

قال القاسمي رحمه الله تعالى : «النهي عن الاسراف إما في التصدق، أي لاتعطوا فوق المعروف ... وإما في كل شيء، قال عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء ، وقال إياس بن معاوية : ماجاوزتَ فيه أمر الله، فهو سَرَف، واختار ابن جرير قول عطاء، قال ابن كثير : ولاشك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى :«كلوا من ثمره اذا أثمر» أن يكون عائداً على الأكل، أي «لاتسرفوا في الأكل، لما فيه من مضرة العقل والبدن، كقوله تعالى:

﴿ ... وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَتُسْرِفُواْ ... ﴾

{الاعراف 31}

وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدَّقوا من غير إسراف ولامخيلة»[1]. وهذا من هذا»[2].

وان الاقتصاد في الانفاق هو قمة التوجيه الاسلامي، لأنه يعالج أمراضاً نفسية في التعالي وحبِّ الكبر والرغبة في الظهور والتفاخر، ثم الوقوع في شباك الشيطان عند الانفاق غير المشروع والتبذير في المال، قال تعالى :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَتُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾.

(الإسراء 26 - 27)

---

(1) صحيح البخاري 5 / 2181 كتاب اللباس ، باب قول الله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ». الاعراف /32، والإسراف في الاصل هو تجاوز الحد في كل فعل أو قول، واستعماله في الإنفاق أشهر من غيره، وهو فيه : الإنفاق زائداً عما ينبغي ويليق، والمخيلة بكسر الخاء من الخيلاء وهو التكبر.

(2) محاسن التأويل 6 / 2527 ومابعدها.

قال القاسمي : «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» أي أمثالهم في كفران نعمة المال بصرفه فيما لاينبغي، وهذا غاية المذمة، لأنه لاشرٌ من الشيطان، أوهم إخوانهم أتباعهم في المصادقة والإطاعة كما يطيع الصديق صديقه، والتابع متبوعه، أوهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد، والجملة تعليل المنهي عنه عن التبذير، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم، وقوله : «وكان الشيطان لربه كفوراً» من تتمة التعليل، قال أبو السعود: أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى، لأن شأنه أن يصرف جميع ماأعطاه الله تعالى من القُوَى، الى غير ماخُلقت له من أنواع المعاصي، والإفساد في الأرض، وإضلال الناس، وحملهم على الكفر بالله، وكفران نعمه الفائضة عليهم، وصرفها الى غير ماأمر الله تعالى به، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، من بين سائر أوصافه القبيحة، للإيذان بأن التبذير، الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها، من باب الكفران، المقابل للشكر الذي هو عيارة عن صرفها الى ما خُلقت هي لـه»[1].

---

(1) محاسن التأويل 3920/10 ومابعدها

ووصف القرآن الكريم المسرفين عامة بأنهم أصحاب النار، فقال تعالى :

﴿ .. وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

{غافر 43}

وقال عز وجل :

﴿ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

{الشعراء 151}

ومن جهة أخرى فإن الاقتصاد والاعتدال في الإنفاق ينجي صاحبه من الصفات المذمومة، والأمراض الدفينة في النفس، وتعشعش في زواياها كالبخل والشحّ والتقتير، ولذا قال تعالى :

﴿ ... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

{الحشر 9}

ويكون الاعتدال وسطاً بين الإفراط في التقتير والتقصير في التفريط في الاسراف.

7 - الاقتصاد في التشريع :

ذكرنا سابقاً أمثلة عن الاقتصاد والاعتدال في السلوك والمعاملات، مع أدلة موجزة لها، ونختم ذلك بالقول: إن الاقتصاد والاعتدال هو منهج التشريع الإسلامي عامة في كل فروعه وجزئياته وأحكامه، وما من حكم فقهي، إلا وقد روُعيت فيه جوانب الاعتدال والتوسط بين أطرافه، ففي أحكام العقود عامة راعى الشرع الحكيم العدل والاعتدال بين المتعاقدين، ليقيم التوازن بينهم، ويمنع الغلو والمغالاة، والإفراط والتفريط، والجور والتقصير، وفي الكسب شرع الطرق الحلال ، وحذر من الحرام، وفي بر الوالدين أمر بطاعتهما حتى قرن ذلك بطاعة الله وعبادته، وأن عقوقهما ومخالفتهما من الكبائر، ومع ذلك فلايجوز الإصغاء لهما إن طلبا الكفر بالله تعالى، ولايسمع كلامهما إن كان فيه معصية لله تعالى، وفي معاملة الأسرى الكفار الذين أخذوا من أرض المعركة فتحجز حريتهم ولهم أحكامهم المتناسبة معهم، ولكن يجب معاملتهم معاملة انسانية كريمة بالرفق والإطعام، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابة بأسرى بدر حتى كان الصحابة يؤثرونهم على أنفسهم

وأهليهم في الطعام الجيد، وفي ظل القضاء الذي ينظر في الخصومات والخلافات، ومنع الظلامات، وكف يد المجرمين، ومنع المستبدين والغاصبين أمر الله تعالى بالعدل والقسط لتحقيق الاعتدال في الحقوق والواجبات، والاعتدال في المساواة بين الخصوم، والعدل في العقوبة والحكم وسماع الشهود، وفي نطاق الأسرة وتربية الأولاد أمر الله تعالى بالعطف والحنان، والبر والإحسان، والرعاية، والقوامة على الأطفال، ولكن بدون دلال مفرط، ولاقسوة منفرة، وفي إطار الملكية أقر الإسلام التملك كحق طبيعي فطري، ولكنه قيد الملكية بقيود عديدة، ومنع استغلالها لغير ماشرعت له، وفي جميع الحقوق التي أقرها الإسلام حذَّر من التعسف في استعمال الحق، والإساءة في استخدامه، وأقر الإسلام مثلا تعدد الزوجات، وبيَّن الأحكام التي ترعاه نحو الصواب والسداد، والحياة الزوجية الرغيدة، والسكن الزوجي. كما أقرَّ الإسلام الطلاق، وفي ذات الوقت حدد آدابه وأحكامه وشروطه وقيوده...، وهكذا في جميع مصادر الشرع وموارده، وأصوله وفروعه، وقواعده وجزئياته، يهدف الى تحقيق الاقتصاد والاعتدال، والأناة والرفق، ويجمع

ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«ان اللّه رفيقٌ يحب الرّفق في الأمر كله»[1].

وفي رواية :

«ويُعطي على الرفق مالا يُعطى على العنف، ومالا يُعطى على ماسواه».

وفي رواية :

«إنَّ الرفق لايكون في شيء إلا زانه، ولاينزع من شيء إلا شانه»[2].

قال الشاطبي رحمه الله تعالى : «الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدَل الآخذ من الطرفين بقسط لاميل فيه، الداخل تحت كسب العبد، من غير مشقة عليه ولاانحلال، بل هو تكليف جار على موازنةٍ تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال...» ثم يقول : «فإذا نظرت في

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً (2539/6)، ومسلم (146/16).

(2) صحيح مسلم 146/16

كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإذا رأيت ميلاً الى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر ....، فإذا لم يكن هذا ولاذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمَعْقِل الذي يلجأ إليه...» ثم يقول : «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعيةَ هواه، حتى يكون عبداً للّه اختياراً، كماهو عبد لله اضطراراً»[1].

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى" «اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول، محروسُ القواعد، لاخللَ فيه ولادَخَل، وكذلك كل الشرائع، إنما الآفة تدخل من المبتدعين في الدِّين أو الجهّال»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفرّاط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لاتقوم مصلحة البدن الا به، فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل، وجاوزه أو نقص عنه

(1) الموافقات ، للشاطبي 2/116، 119،120

(2) صيد الخاطر ، له ص 161.

ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك، وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب، والجماع والحركة، والرياضة والخلوة، والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطاً بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وإن انحرفت الى أحدهما كانت نقصاً، وأثمرت نقصاً»[1].

وقال ابن القيم أيضاً : «إن الشريعة ومبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلُّها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور، وعن الرحمة الى ضدها، وعن المصلحة الى المفسدة، وعن الحكمة الى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله أتمَّ دلالة وأصدقها»[2].

---

(1) الفوائد ، له ص 253.

(2) إعلام الموقعين ، له 3 /14.

ونكتفي بهذه الأمثلة الشرعية والتشريعية عن الاقتصاد والاعتدال في التَّدين، وختمناها ببعض القواعد العامة، والنصوص الشاملة التي تشير إلى المنهج الإلهي في التشريع والتكليف والسلوك، وهو أمر مبيِّن، واضح، مقرر، منظم، دقيق، شامل، ولايحتاج إلا إلى شيء واحد، وهو التطبيق والتنفيذ والالتزام ليحقق أهدافه، ويجني ثماره، ويعطي إنتاجه ويؤمن السعادة والرفاهية للإنسانية في الدنيا والآخرة، ويمنح صاحبه الرضا والاستقرار، والحياة الرغيدة، والوئام والمحبة والعافية في الدِّين والدنيا، وفي العاجل والآجل، ومن ذاق عرف، وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبنا ، وعليه التُكْلان، ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين .

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز عن موقف الإسلام من الاعتدال في التدين، والاعتدال في العقيدة، والاعتدال في المبادئ والأحكام، والاعتدال في العبادة، والاعتدال في الانتماء والالتزام، والاعتدال في السلوك والعادات، والاقتصاد في جميع ذلك نستخلص النتائج التالية :

1 - تحريم المغالاة في التدين، والغلو في الأحكام، والرهبانية في الدين، ومنع العنت والإعنات في التصرفات والسلوك، مع التنديد بالتشدد، والتحذير من بواعثه ونتائجه.

2 - وجوب الالتزام بأحكام الشرع والدين : لأنها جاءت لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، وفي الدنيا والآخرة، بجلب النفع لهم ودفع الضرر والأذى عنهم، لذلك يحرم التفريط في أمور الشرع، مع التهديد الصريح من التقصير في أداء

التكليف، لأن ذلك ينسف مصالح المقصر نفسه، ويلحق به الفساد والإفساد، ويعود عليه بالخسارة والإفلاس في الدنيا والآخرة.

3 - يقرر الشرع الحكيم الشخصية المتميزة لأبنائه وأتباعه، وذلك بتحديد الهوية، والصدق في الانتماء، والصرامة في الالتزام، والوقوف عند الحق والعدل ولو كان مراً، وأن ذلك من التعصب المحمود والمقبول عقلاً وشرعاً، مع بيان التعصب المذموم ، والتحذير من العصبية العمياء، وغمض الحق لصاحبه و إكراه الآخرين على الإيمان والسلوك، وقد يختلط الأمران السابقان في المجاملات الممقوتة، والتقليد الأعمى، والمحاكاة الصماء في السلوك والعادات.

4 - ظهر لنا بالأدلة والنصوص موقف الإسلام الجلي الواضح في العدل والقصد، والاعتدال والاقتصاد، والوسط والوسطية في الاعتقاد، والتكليف، والتشريع، والأحكام، والعادات، والسلوك وهو مايتفق مع المنطق والعقل، وينسجم مع الواقع ومقتضيات الحياة، ويتفق مع إمكانيات الإنسان وضعفه وعجزه، وقدراته وإمكانياته، وطموحه وآماله وآلامه، وتعرضه للطوارئ والأمراض والوهن والعجز والشيخوخة، وتصدّيه

لمقتضيات الأهواء والشهوات والميول، ومعاناته مع الشيطان وجنده وأتباعه، وتقديره لملكاته العقلية وقدراته المحدودة، وحواسه الملموسة، ليأتي الاعتدال والالتزام والاقتصاد منسجماً مع كل ذلك، وموافقاً لهذه المعطيات، ليستطيع الإنسان الاستمرار في التكليف، ويؤدي أعماله الحياتية وواجباته المتنوعة.

5 - يظهر من البحث أهمية الدين الحنيف، وحاجة الناس إليه، عند الالتزام بوظيفته الصحيحة وذلك بتحقيق التوازن في الإنسان بين روحه وجسده وعقله، وإقامة التوازن بين غرائزه المختلفة، وتوجيه ميوله وعواطفه الوجهة الصحيحة التي تحفظ الفرد، وتخدم المجتمع والأمة.

كما يهدف التدين الصحيح الى تحقيق التوازن بين الفرد والمجتمع، لأنه يقيم العلاقة السديدة بين المواطن والدولة، فيعرف كل منهما حقه فيقف عنده، ولايخرج الفرد على الدولة والمجتمع بالعبث والفساد والإجرام والتحكم بأرزاق الشعب والتلاعب بمقدرات الأمة وأملاكها وقوت أفرادها، ولاتتطاول الدولة على الفرد فتسلبه حقوقه الطبيعية والانسانية.

هذا المنهج في الاعتدال هو ماتصبو اليه البشرية، وتسعى إليه النظم العالمية اليوم، فالشيوعية تراجعت عن غلوائها

وإفراطها ومغالاتها المادية، واتجهت حديثاً إلى التخفيف من ذلك، وتخطو خطوات في الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، والفكرية والتربوية، والنفسية والدينية، والرأسمالية أدركت مخاطر التطرف في الفردية والأنانية والاحتكار، وتداركت الكثير من المغالاة والغلو في اقتصادها، واتجهت إلى الاعتدال في الشؤون الاجتماعية والعمل، ولكن كلا الاتجاهين لايزالان في أول الطريق لإقامة التشريع والتنظيم المعتدل نفسياً وتربوياً وقانونياً واجتماعياً واقتصادياً، ويحتاجان إلى سنوات عديدة لتحقيق هذا الهدف الذي دعا إليه الدين الحنيف، والشرع الحكيم، وقرره وطبقه ونجح فيه قبل خمسة عشر قرناً.

ومن هنا يسير المؤمن الصحيح على صراط الله المستقيم، ويتجنب مخاطر الطريق، ويبتعد عن منافذ الشيطان، ويتنبه إلى عثرات النفس والمال، وأمراض الحياة والمجتمع مطمئناً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾

(الزلزلة 7 –8)

وملتتزماً بقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

{الأنعام 153}

وقوله تعالى :

﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً... ﴾.

{الأنعام 126}

وهو يردِّدُ يومياً عشرات المرات ماعلّمه الله من الدعاء في أعظم سور القرآن الكريم :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

{الفاتحة 6 -7}

6 - هذا المنهج القويم في الاعتدال في التدين عقيدة وشريعة وسلوكاً، هو ماأنزله الله تعالى لهداية عباده، ودعوتهم إلى الحق والصواب وهو هدية السماء للأرض، ورحمة الخالق

للمخلوقين ورسالة الله إلى العالمين، ونصيحة الاسلام للناس أجمعين، فمن اهتدى فلنفسه، ومن أساء فعليها، وماربك بغافل عما يعمل الظالمون، وأن هذا المنهج يقف شامخاً صامداً، ثابتاً خالداً، أمام العقلاء والمفكرين، وهو الصخرة العاتية التي تفجع أعداء الله في النيل من دينه وعباده وأتباعه، ليرتدد خصوم الإسلام على أعقابهم ويموتوا بغيظهم، وأن الله تعالى لهم بالمرصاد، ليحبط عملهم في الدنيا والآخرة ، وأن تآمرهم سيبوء بالفشل، وأن الله سيجعل تدميرهم في تدبيرهم، ولن ينالوا من دين الله شيئاً، وينطبق عليهم قول الشاعر :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنَها

فلم يضرها، وأوهى عظمَه الوَعِلُ.

نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، والسداد والالتزام، والتطبيق والعمل، وعلى الله قصد السبيل، والحمد لله رب العالمين.

أهم مراجع البحث

1 - الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (676هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الرابعة - 1375هـ /1955م

2 - أصول الفقه الاسلامي، الدكتور محمد الزحيلي مطابع مؤسسة الوحدة - الطبعة الثانية دمشق 1401هـ/1981م.

3 - الإعلام بقواطع الإسلام، أبو العباس أحمد بن محمد، ابن حجر الهيتمي (974هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الثانية- 1390هـ/1970م (مع كتاب الزواجر).

4 - الأمثال، الحافظ أبو عُبيد القاسم بن سلام (238هـ) دار المأمون للتراث - دمشق - الطبعة الأولى، 1400هـ/1980م.

5 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي (817هـ) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة - 1383هـ.

6 - تاريخ الأديان، للدكتور يوسف العش ، والدكتور محمد الزحيلي. المطبعة التعاونية بدمشق - 1401هـ/1981م.

7 - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للعلامة محمد عبد الرحمن المباركفوري (1353هـ) مطبعة المدني - القاهرة - الطبعة الثانية - 1383هـ /1963م.

8 - الترغيب والترهيب، الحافظ عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري (656 هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - القاهرة - الطبعة الثالثة - 1388هـ/1968م.

9 - تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (310 هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الثانية - 1373هـ/1954م.

10 - تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن،ابو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (671هـ) نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة - 1387هـ/1967م.

11 - تفسير ابن كثير = تفسير القرآن الكريم، الحافظ أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي (774هـ) طبع عيسى البابي الحلبي - القاهرة.

12 - جامع الترمذي (سنن الترمذي)، عيسى بن سَوْرة (279هـ) مطبعة المدني القاهرة - طبعة ثانية - 1384هـ/1964م، مع تحفة الأحوذي.

13 - الرسالة القشيرية في علم التصوف عبد الكريم بن هوازن القشيري (465هـ) تصوير لبنان عن طبعة 1367هـ/1957م.

14 - رياض الصالحين، للعلامة محي الدين بن شرف النووي (676هـ) مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية - بيروت - 1398هـ/1978م. (مع نزهة المتقين).

15 - زاد المعاد في هدي خير العباد، المحدث شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (751هـ) مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الاولى -1399هـ/1979م.

16 - سنن الدارمي، أبومحمد عبد الله بن عبدالرحمن الدارمي (255هـ). تحقيق أحمد محمد دهمان - طبع دار إحياء السنةالنبوية.

17 - سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث (275هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - القاهرة - 1371 هـ /1952م

18 - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (273 هـ) مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة - 1372 هـ /1952م.

19 - سيرة عمر بن الخطاب، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (597 هـ). الطبعة الأولى.

20 - السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام (218 هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - القاهرة - الطبعة الثانية - 1375 هـ /1955م

21 - السيرة النبوية، السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار الشروق - جدة - الطبعة الأولى - 1397 هـ /1977م.

22 - شرح النووي على صحيح مسلم، المحدث محيي الدين يحيى بن شرف النووي (676 هـ). المطبعة المصرية -القاهرة - الطبعة الأولى.

23 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (544 هـ) . تصوير دار الفكر - بيروت- 1401 هـ /1981 م.

24 - صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (256 هـ) .

دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى - 1401هـ /1981م.

25 - صحيح البخاري بحاشية السندي، للإمام محمد بن اسماعيل البخاري (256 هـ) المطبعة العثمانية بمصر - الطبعة الأولى.

26 - صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (261 هـ) المطبعة المصرية- القاهرة - طبعة أولى- بدون تاريخ (مع شرح النووي).

27 - صور من حياة الرسول، الأستاذ أمين دويدار. دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة.

28 - صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (597 هـ) تحقيق محمد عبد الرحمن عوض. دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية - 1407هـ /1987 م.

29 - العبادة في الإسلام، الدكتور يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة- بيروت الطبعة الثالثة- 1393 هـ /1973 م.

30 - الفتح الكبير في ضم الزيادات الى الجامع الصغير للسيوطي، جمع يوسف النبهاني (1350 هـ /1932 م). مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر- 1350 هـ

31 - الفقه الإسلامي وأدلته، الدكتور وهبة الزحيلي طبع دار الفكر بدمشق- الطبعة الأولى- 1404هـ /1984 م.

32 - الفوائد، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية (751 هـ) نشر دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، 1407هـ /1987م.

33 - فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى محمد - القاهرة - 1356هـ /1938م.

34 - القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزابادي (817 هـ) مطبعة المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة.

35 - كشف الخفا ومزيل الإلباس، اسماعيل بن محمد العجلوني (1162 هـ) طبع مكتبة التراث الإسلامي - حلب.

36 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، السيد أبو الحسن علي الندوي - متع الله به - مكتبة دار العروبة - القاهرة - الطبعة الثالثة - مطبعة المدني بمصر - 1359هـ /1979م.

37 - المجموع شرح المهذب، للعلامة محيي الدين بن شرف النووي (676 هـ). نشر زكريا علي يوسف - مطبعة العاصمة- القاهرة.

38 - محاسن التأويل (تفسير القاسمي) العلامة محمد جمال الدين القاسمي (1332 هـ /1914 م). مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الأولى- 1376هـ /1957م.

39 - مختصر صحيح مسلم، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (656 هـ) تحقيق محمد ناصر الدين الألباني - نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت.

40 - مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل (241 هـ). الطبعة الثانية - المكتب الإسلامي - بيروت - 1398 هـ/1978 م.

41 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي (770 هـ). المطبعة الأميرية - القاهرة - الطبعة السادسة - 1926م.

42 - معجم ألفاظ القرآن الكريم، لجنة من مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة - الطبعة الثانية - 1390 هـ/1970م.

43 - المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني (502هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة - 1381هـ/1961م.

44 - الموافقات في أصول الأحكام، أبو اسحاق إبراهيم ابن موسى اللخمي الشاطبي (790 هـ). مطبعة المدني بمصر - نشر مكتبة صبيح وأولاده.

45 - موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان، نور الدين علي ابن بكر الهيثمي (807 هـ). تصوير دار الكتب العلمية - بيروت.

46 - نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي، مجموعة من الأساتذة. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية - بيروت - 1398 هـ /1978 م

47 - النهاية في غريب الحديث والأثر - مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير (606 هـ). طبع عيسى البابي الحلبي- القاهرة - 1383 هـ/1963 م.

48 - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري بك (1927م). تحقيق محيي الدين الجراح - الطبعة الثانية - دمشق.

فهرس الموضوعات

الاعتدال في التدين

كثيرا ماتضيع الحقائق، وكثيراً ماتغيب الجواهر بين الركام، وتتشابه الأشباح في الظلام، وهذا ماحدث فعلاً في التدين في الماضي والحاضر فالدين جوهرة ثمينة، وهو البلسم الشافي للبشرية، ولكن الدين الحق اشتبه بين الأفراد، وغالى به فريق فشوّهوه، وفرط به أفراد فعابوه وطمسوا معالمه ومحاسنه، ولكن بقي الدين سليماً وصحيحاً ومعافى ومحفوظاً، وبقي منهجه الإلهي القويم في الاعتدال عقيدة وشريعة وسلوكاً.

وهذا مابيّنه كاتبنا المعروف الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي، بأسلوب مبسط، ودراسة واقعية، وعالج هذا الموضوع الدقيق لبيان الحق من الباطل وكشف الدعاوى المفرضة، والشبهات الزائفة، ليبين لنا منهج الله القويم، الذي يحقق السعادة للبشرية في الدنيا، والفوز والرضوان في الآخرة.